www.diwanalarab.com

ديوان العرب تقدم لكم

الغريب والبحر

مجموعة قصص قصيرة

المجموعة الأولى

الكاتب: جميل خرطبيل

فلسطيني مقيم في سوريا

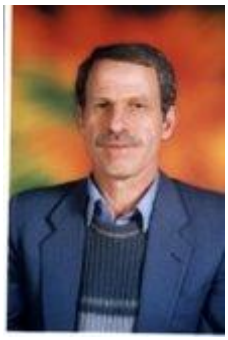

*****

الفهرس:

1- الغريب والبحر.

2- طقوس صابر في رجم إبليس.

3- حدث ذات ليلة.

4- التحقيق.

5- فستان العيد.

6- المجنون.

7- السجين.

8- الزفاف.

9- القافلة.

10- جفرا.

11- قهقهة.

12- الساعة الخامسة والعشرون.

13- القضية.

14- مهمة في الجنوب.

15- اعترافات عيزرا.

16- انتصارات صهيونية.

17- انهيارات صهيونية.

* * *

الغريب والبحر

منذ أن عادت بي قدماي إلى غزة، بعد ثلاثين عاماً من الترحال، كنت أتردد إلى شاطئ البحر ما سمحت لي الظروف والأوقات. أتدرج على رماله، وأتأمل لوحة مياهه وقد امتزجت بزرقتها حمرة الشمس عند الغروب. أرقب الأمواج وهي تجمع قواها لترتطم بالصخور بكل عنفوانها، ولكنها تتحطم أمام أقدامها وتتبعثر مقهورة، مخلفة وراءها الزبد المتلاشي بعد هنيهة.

وتعيد الكرة كلما سنحت لها الفرصة، دون كلل أو استسلام. وهذا دأبها؛ تناطح الصخور، والصخر بكبريائه رصين يهزأ بوقار متعالٍ من إصرارها الصبياني.

وأبقى على الشاطئ، متناسياً متاعب الحياة لسويعات قليلة، عليّ أحظى بإنسانيّ الضائع في خضم عالم محموم، تتلاحق فيه الأحداث، وتتبدل المعايير والقيم. وتتجلى فيه التناقضات بين القول والعمل.

وعلى الرغم من محاولات التناسي تلك، تتداعى إلى ذهني - متسللة في غفلتي عنها - خواطر عما وصلنا إليه، وما كنا نحمله من تطلعات ورؤى.

استهوتني حركات كهل وسيم الطلعة، أنيق المظهر. يبدو وجهه الملوح بالشمس مؤنساً إلا أن عينيه الكابيتين توحيان بكآبة كمنت خلفهما.

كان يداعب - كطفل- مد البحر وجزره، يماشي الرمال، والمياه تنسل زاحفة بتؤدة من بين قدميه، فتطالهما وتغمرهما، فيتقهقر برشاقة وخفة. ثم يتقدم ويدنو ثانية. يشخص ببصره حيث السماء والبحر في عناق أبديّ. ثم ينحني راكعاً يجمع في كفيه الماء والرمل، تاركاً لهما حرية الانسياب من بين أصابعه. وأرى شفتيه ترتعشان أمام المياه؛ أهو يدندن، أم يناجيها، أم يتلو صلوات ما؟!

جذبني الفضول للتعرف إليه. مررت به، تفحصته عن كثب، لم يأبه بوجودي، ولم أبال بعدم اكتراثه.

وقفت إلى جانبه وحشرت نفسي بينه وبين بحره، وابتسمت له بمودة وحييته، ردّ التحية بلطف، وتابع هيامه الصوفي.

بدأت أتلمس مدخلاً إليه من خلال مجاملات مألوفة بين غريبين يتقابلان مصادفة لأول مرة. ثم جررت الحوار باتجاه البحر، فقلت:

- البحر هائج اليوم!

أثار جرس البحر أذنيه كأنما له إيقاع خاص فقال:

- لا! إنه طبيعي... عادي جداً.. قبيل ساعة كنت أسبح.

ابتهجت فقد وقع في شركي، فولجت من الباب العريض:

- كنت أتمتع برؤية البحر فرأيتك...

رمقني بنظرة خاطفة مستغرباً، ثم قفزت عيناه فوق المياه حتى الأفق اللانهائي. بينما تابعت كلامي؛ فحدثته عن تصرفاته التي استحوذت على عينيّ. وبحت له بحبي للبحر ولمغيب الشمس في أحضانه.

ارتاح إليّ، لم يبدِ أي انزعاج من تطفلي عليه. وفتح شاهية لسانه للكلام عن جلال البحر وروعته، وتعلقه به. فتنطعت:

- البحر لغز غامض، والإنسان يحبه لأنه لا يستطيع أن يحل أحجيته. فهو في وقت واحد: الاطمئنان والرهبة، الراحة والقلق، الجمال والبشاعة...

نظر إليّ ملياً ثم عقب:

- البحر ليس لغزاً ولا غامضاً. له حياته البريئة الخاصة به فهو مرآة لنفسه. ولكن نحن نرى فيها أنفسنا فنجمله أو نقبحه. وصدره رحب يتسع لإسقاطات مشاعرنا وأحاسيسنا عليه.
أخذ يسهب في الإفصاح عن بحره. بينما اكتفيت بهز رأسي للإعراب عن سروري وموافقتي، فاسترسل بمزيد من الثقة واليقين:
- كل منا يحمل أفكاراً، ولكن عقداً وعراقيل تعترضه بأنانيتها. لا تريد أن تسمعه، أن تعترف بكينونته. وتحتمي في ظل ذرائع وهمية تفضح نرجسيتها. البحر كما تراه بقلبه الكبير لا يهزأ بنا. وهذا ما ربطني به، فهو المتنفس الوحيد لي.
أحسست بمعاناة متوارية تعصره، فانسقت وراء إلحاح لهفتي للغوص في أعماقه.
قلت مازحاً:
- أراك تحمل فلسفة بحرية!
انفرج فمه عن ابتسامة مقتضبة خجولة:
- البحر خطاب مفتوح، ولكل إنسان قراءته، وهذه هي الحرية، وقمة الفلسفة هي: حرية الإنسان.
تدفق فيض خواطر، رافقها شعور خيل إليّ معه أن البحر يشاركنا، يثرثر معنا... إنه ثالثنا.
استدركت خيالي السادر، وقلت:
- أنا معك ولكن هناك قراءة أهم؛ الأرض، السلطة، العدو...
بدت الجدية الصارمة على وجهه. خطا بضع خطوات نحو الماء، كأنما يستمد منه الإلهام. ثم انفلت إليّ ملوحاً بإصبعه، وخاطبني ممتعضاً وباستنكار:
- اسمع! أين عكا في خارطتكم الجديدة ؟
باغتني بسؤاله. فقد كنت على وشك اقتحام قلعته، وإذ به يقرع أبوابي. قفز إلى لساني جواب سريع، ولكن كنت في ريب من أية إجابة جاهزة، لأنها غالباً ما تكون واهية أو مزيفة. فنحن لم نستطع أن نحدد بالضبط كيف نعيد غربة الوطن إلى أهله الغرباء!
وإذا ما حددنا، نتخبط بين الوسائل والغايات. وكم من وسائل صارت غايات في ذاتها. وفي كل مرة نتبنى موقفاً نجعله الحل المطلق. وتمر الشهور رتيبة ممضة، ولا نستطيع متابعته فنعود منكسرين فيما بعد لتبديله، أو لنرضى بما هو دونه. ويصير الدون أمنية الأماني ونهاية المطاف.

وتقمع آمال وأحلام مع موقفنا السابق. وتقمع أخرى مع موقفنا التالي. وهكذا ندور في حلقة مائعة الشكل، مفرغة إلا من معمعة جوفاء. وفي كل دورة نوهم أنفسنا بالتقدم، ولكن إلى أين، وآمالنا كسيحة بعد أن فضت بكارتها، وطموحاتنا تتقزم خريطتها شيئاً فشيئاً.
لبت عن طرح معقول ألوذ به. أعياني المنطق، وأدرك اضطرابي فلم يربك عجزي، فقطع علي شرودي، وأنقذني من لجة الحرج وقال:
- إيه، أين وصلت؟! دعك من السؤال المعضلة فأنا لا أستطيع أن أهضم ما يجري. ماذا تعلمنا من الماضي. وهل استفدنا من تجارب الآخرين، ومن تجاربنا المريرة التي خضناها ، ألم نشبع من التجارب ؟ أشك في ذلك!
وتمهل لحظة وتابع:
- لا أريد أن أصدق عيني ! رفاق الدرب يعتقلون من يكافح العدو!
وانسلت دمعة من عينيه ، وتحشرجت الكلمات في حلقه:
- إذا أردتم أن تكونوا هناك، فابدؤوا من هنا... البحر واضح تماماً، وهو لا يغيب الآخر، ولا يجهض الأمل. لتأتوا البحر، فتتعلموا منه كل شيء؛ معنى الصفاء والنقاء، معنى الحرية والآخر، معنى الأمنيات.
رتبت أفكاري المشتتة بعد لأي:
- لا أحد يستطيع وأد الأمل، لكنك تبحث عن خلاص فردي، إنه الواقع وعلينا أن نفعل شيئاً تجاهه، تجاه الآخرين. لا أن نأتي البحر، البحر هو الهروب!
تبدلت أساريره وامتقع لونه، فعدلت من وطأة لساني السليط، وأكملت لأسترضيه، ولست أدري أأخدعه أم أخدع نفسي:
- الإيمان بالآخر قضية أخلاقية وقانونية. ولا يحق لأحد أن يفرض عليه أهواءه. والولادة لن تكون بغير الحرية، وبغير الخريطة كلها. لكن ذلك لن يتحقق دفعة واحدة. هناك ظروف ...
حدجني بنظرة حادة، لم أستشف مغزاها؛ أهي اشمئزاز، أم رثاء وشفقة. ثم مال إلى الأرض، وقرفص وأخذ يعبث بالماء، فقرفصت قربه وقلت:
- الاستمرار مع البحر لن يعيد إنساننا المهرق دمه. ولن يساعد في بناء حياتنا الجديدة.
زفر طويلاً، ونظر إلى البحر ورد:
- سيعيد إنساني المنسيّ، اغترابي سكين قاتلة.
ثم قام منتصباً وهو يرنو إلى الغرب المتألق احمراراً. ثم حدق إلى عيني، وتابع بتهكم:

- لا أصدق بأنك تعمل من أجل الإنسان، في الوقت الذي فيه تستخف به، تهمشه، تزرع الرعب فيه، تستبيحه... إنك عندما تفعل ذلك تكون قد دمرته، فماذا يتبقى له؟! من يدعي العمل من أجل الإنسان، يحترم إرادته وأفكاره، وأحلامه المعششة فيه.

أتدري؟ لقد سئمت، والاستياء يتغلغل في دمي. ما قيمتي كإنسان له رؤى؟

تراودني أحياناً أفكار سوداء، فألجمها. ولكن ربما يأتي يوم تنفلت فيه من عقالها!

حرت في أمري. فقد حصرني الغريب في زاوية ضيقة. أغلق أركانها عليّ. كبلني، ورماني في بحره أصارع الأمواج، وأنا الغريق الحي. وأسعفتني قشة اقتنصتها منه، خلت أني من خلالها اخترقت ثغرة في بنائه الشامخ، متجاهلاً شروخات بنائي الهش:

- كيف تسأم والبحر لا يسأم مدى الدهر؟

أجابني بصراحة:

- لم نمل طوال السنين المنصرمة. ولم نتوانَ عن فعل شيء. ولكن الآن، عندما أنظر إلى المستقبل، يصيبني الاكتئاب!

عند هذا الحد، عمدت إلى قلب الصفحة كلها. فلم أجد مخرجاً سوى المراوغة، وقد آلت صنواً لحرفتنا، لأريح نفسي من ثقل هواجس جثمت على صدري، وضيقت عليّ تنفسي. فسألته بسذاجة:

- وإلى متى يستطيع الإنسان أن يحاكي البحر؟

انتبه إلى دهائي في الفرار، فضحك مني، وقال:

- هذا متوقف على إيمانه بالفلسفة البحرية!

جرعت سخريته المرة، وساد صمت ونحن نسير معاً، محاذيين بقايا انكسارات الموج فوق الرمال الخابية اللون.

طوى البحر الشمس في غياهبه، وزحفت العتمة باتجاهنا، ولم يبقَ في جعبتي أي فضول متأجج يستحثني. استأذنت منه وودعته دون أن نتواعد على أي لقاء آخر. وسرت في طريقي، وذاتي الغافية في بئر عميقة متوترة. تنبش الحجارة والتراب عن منفذ لها. وما إن تبزغ حتى يخنقها الواقع، فتهمد وتنكفئ إلى قاع مظلم لا قرار له.

***

كرت أسابيع حرمتني من زيارة البحر، وقد أتخمت نفسي بالمفاجآت التي تشرذمنا وتسلخنا أحياء. وتمكن مني اشتياق طاغ، شدني عنوة إلى صاحبي الغريب. فاختلست

عصر يوم هادئ ، وتوجهت نحو المكان الذي التقيته فيه. نقبت عنه في الشاطئ، وجاست عيناي الأمواج والأفق. وارتدت منحسرة إلى الصخور، لتستقر هناك. فقد لمحت إنساناً ظننته هو. هرعت وصوتي يسبقني إليه. كان صياداً ممسكاً بصنارة بين يديه. وصلت إليه متقطع الأنفاس، وسلمت عليه، وانتظرت حتى سكن لهاثي، وخفت ضربات قلبي. فوصفت له صاحبي- أستاذ التاريخ- عسى أن يكون قد رآه. وحين انتهيت، انتفض كمن صعق غرة:

- نعم أعرفه، لقد ابتلعه البحر!

لم أفهم، فاستفسرت عن مقصده، وأنا مبهوت. فقال بعد أن هدأ انفعاله:

- من حضرتك؟

- صحفي.

ترك صنارته، واقترب مني، وأخرج سيكارة وأشعلها. امتص نفساً عميقاً منها، ونفثه ببطء، ريثما يجمع بشباكه كلماته المبعثرة:

- من لم يسمع به؟! كان دائماً على رأس التظاهرات ضد العدو، وسجنته سلطات الاحتلال مرات عديدة. لقد اعتاد أن يأتي إلينا، يجلس معنا، ويشرب الشاي في العريش هناك – وأشار بيده إلى عريش عند الصخور هو أشبه بمقهى يؤمه الصيادون للاستراحة- ويحدثنا عن البحر والحرية.

- كلامه كالعسل لم نسمعه من أحد قبله... عقله يوازي جبلاً. أحببناه، معشره حلو...

وبعد أن يشرب الشاي، يروح إلى السباحة. وقبل أسبوع تقريباً جاء إلى العريش كعهدنا به، وشرب الشاي ثم غير ملابسه، وتركها عندنا، وذهب ليسبح. حذرناه من سوء حال البحر ومن التيارات، فلم يهتم. انه سباح ماهر. وقلبه قُدَّ من صخور الشاطئ.

رأيناه يسبح، وفجأة جرفه التيار. وقفنا مشدوهين. صحنا به كي يرجع... صرخنا... لكن، من المستحيل أن يسمعنا! خفنا عليه. ركضت واثنين، وركبنا القارب في إثره. جدفنا بكل قدرتنا وهو يتوغل أكثر فأكثر.

وازداد الموج ارتفاعاً، ونشطت التيارات وقويت. التيارات مخيفة، بأقل من لمحة البصر تسحبك ولا تحس بها ، فتجد نفسك بعيداً جداً. أمسى البحر فظيعاً، وحشاً عاتياً.

أطلق دخانه كثيفاً نحو البحر. وارتسم الحزن في أخاديد قسماته، وعيناي جاحظتان إلى فمه:

- لقد اختفى عن أعيننا تماماً. كاد أحدنا أن يختطفه الموج من وسط القارب.

أنهكنا التعب، ونحن نجد في الوصول إلى البر، حاملين خيبتنا كالمجانين. أبلغنا شرطة الساحل وتابعنا البحث بلنشاتهم الكشافة طوال الليل دون جدوى.
وفي الصباح الباكر، فتشنا عنه وعلى امتداد الشاطئ ، ولبضعة كيلو مترات في عرض البحر وطوله، ورأينا دوريات العدو ، فعدنا، وما من أثر له. وحتى الآن لم نسمع عنه أي خبر.
قلت بصوت خافت كأنما اندلق من أعماق المياه:
- اختفى، لم تجدوه...؟!
واختنقت الكلمات في حلقي. فربت الصياد على كتفي، وقال بكل تواضع قدري:
- البحر عملاق، وماذا نستطيع أن نفعل تجاه جبروته؟! نحن بشر. البحر شيطان إن تمرد. اسألني أنا، أنا صياد.. إنه صعب الترويض، ولا حدود لشراسته إن غضب. من يتجرأ على تحديه؟ انظر إليه الآن.. ناعم هادئ كحمل.. وديع كملاك..
بدأت شفرة النصل تقطع أحشائي. لفتني دوامة بعباءتها، وأزاغت بصري. فامتد تقيؤ إلى حلقي، فجرضت بريقي بصعوبة. نظرت إلى البحر أود لو ألومه، أشتمه، وأنا أتماسك من الانهيار.
شبح غريب يتماوج كسراب فوق صفحة المياه. عيناه تائهتان في المجهول.
خال غروري أنه سبر غورهما، فأرضى تكهناتي عنه، لكن ما فائدة كشف خفايا الآخرين، أو الاستماع إليهم، إذا كنا في النهاية لا نرى إلا أنفسنا؟! لم أدرك مأساة الإنسان إن كانت غربته في داخله، ولم يخطر في بالي أن الإنسان ينتهي إن وقع ضحيةً بين ما يجب أن يكون وما هو كائن.
إنه المرآة التي ما فتئت أدفنها في رمال الشاطئ، لئلا أرى تشوهات وجوهي في تهشمها، بعد أن انزلقت في فخاخ أودية سحيقة. فتهت في فنجان قهوة، وتبخرت أوهامي كفقاقيع صابون.
اكفهر البحر أمام عيني. ودخلتني الروعة، فاقشعر جسدي ولفعتني وخزة برد ، وهو يزدرد الشمس بشراهة، ودمها الأرجواني ينزف منها. أدرت له ظهري، وهرولت مبتعداً، وأصوات قادمة من بعيد، وهي تشيع شهيداً آخر.

*****

طقوس صابر في رجم إبليس

وقف صابر أمام باب السجن مشدود القامة، شامخ الرأس، ليملأ رئتيه بنسمات الربيع القادمة مع أسراب السنونو.

سبع سنوات أمضاها في تلك الزنزانة المعتمة والرطبة تحت سطح الأرض، ولم تنحن قامته ولم يتحدب جسده، ولم يتقعر.

غطت الكدمات وجهه، لكنه بدا مشرقاً متلألئاً وهو يلامس السماء الصافية، وأخذت العصافير تداعبه بصوتها العذب، وهي تحوم حوله في ذاك الفضاء اللامتناهي.

كل ما حوله كما تركه يوم دخوله. وقف في هذا المكان لحظة ادخر في أعماقه كل ما تطاله عيناه. فلا أحد يعلم متى سيخرج. وهل يموت هنا أم يولد من جديد!

مشى بخطوات وئيدة ما لبثت أن تسارعت إلى قفزات تناغمت مع دندنته.

ولم تكن السلسة الحديدية التي امتدت من معصميه إلى أحد الحارسين المرافقين له لتعيق طيرانه.

يا أبت ما أروع أن يولد الإنسان من جديد، ما أروع أن يعود إلى المناسك من جديد. جميلة هي الحياة يا أبت، والأروع يا أبت أن نجعلها الأجمل.

أخذ الحارسان يجران جسدهما خلفه حتى باب السور المفضي إلى خارج المعتقل.

لم يعلم أحد من بلدته شيئاً عن خروجه. ومَن في المعتقل الكبير يعرف متى يخرج الحبيس؟

أمام باب السور الخارجي ربضت سيارة شحن عسكرية، ووقف أمامها جنديان كانا في انتظاره، إذ تحركا نحوه وهو يخرج من الباب. وفي مقدمة السيارة اتكأ السائق برأسه على ساعديه فوق المقود، وإلى جانبه استرخى جسد آخر وقد تدلت الخوذة الحديدية فوق أرنبة أنفه.

دفعه أحد الحارسين باتجاه الجنديين. قال الجندي بلغة عربية ركيكة ذات لكنة عبرية، وهو يفتح باب السيارة الخلفي:

- هيا اصعد إلى الصندوق.

فوجئ صابر لهذا الأمر، وتملكته الدهشة، وخال الأمر خطأ ما، فسأله:

- ولم أصعد؟

أشار الجندي إليه بفظاظة أن يصعد، وكان ممسكاً ببندقية "العوزي" بين يديه وفوهتها مصوبة نحو صدره.

ولم يحتج الأمر إلى تفكير، فالجنود موتورون بالقلق دائماً. التفت إلى الحارسين وجرض بريقه وهو يمد يده جاراً معها السلسلة الحديدية إلى جيب قميصه وأخرج ورقة قدمها إلى الجندي. لم يلتفت الجندي إليها ولم يمسها. قال صابر:

- سبع سنوات أمضيتها بالتمام والكمال، صحيح بأنها زادت أشهراً قلائل ولكن الزمن يمضي. والورقة هذه استلمتها بالأمس وفيها إخلاء سبيلي، إطلاق سراحي. ثم نقل عينيه بين الحارسين والجندي وقال:

- اسألهما!

ولم ينتظر الحارسان أية إشارة ليساعدا الجندي في جر صابر بعنف إلى الزنزانة الحديدية فوق الشاحنة.

مدّ صابر يده نحو الجندي ليكفه عنه، فانتفض الجندي كمن مسه تيار كهربائي وتراجع إلى الوراء خطوة وانكمشت كفه المتوترة على العوزي منذرة بإطلاق الرصاص!

وفي الوقت نفسه هبط الجنديان من السيارة إلى الخلف مذعورين وصوت تلقيم بندقيتيهما يحدث قرقعة زعزعت سكون ذاك الصباح الهادئ.

جمد صابر في مكانه وبقيت قبضته معلقة في الهواء..

صعد الدرجات وهو يسأل:

- إلى أين؟

- إلى خارج البلاد!

قال رئيس الأبالسة: " إن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً في أعينكم ومناخس في جوانبكم" .

وصار وجه صابر المتجهم شاحباً.. فكل شيء واضح الآن..

يوم خرج عيسى من السجن طردوه خارج البلاد. قالوا: سيعود إلى رمي زجاجات المولوتوف.. إنه يشكل خطراً على الأمن القومي!

قال المعلم:

- ومن الذي يحتاج إلى الأمن؟ أهو الذئب الشيطان أم الحمل الطيب؟

ودلال وقفت أمام المدعي العام، ومزقت العلم الإسرائيلي، ورمته على الأرض، ثم داسته بقدميها وقالت لهم: أنتم غرباء مستعمرون فلترحلوا. طردوها، وقالوا: أهانت كيان الدولة!

قال المعلم:

- الحق أقول لكم، ليس لإبليس المستعمر شرف الكيان، لنقرأ ما شرعه لهم إبليسهم كفن في التعامل مع كينونة الشعوب:

" إني أدفع إلى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك، لا تقطع لهم عهداً... ولا تشفق عليهم... من الشعوب الذين حولكم، منهم تقتنون عبيداً وإماء.... تستعبدونهم إلى نهاية الدهر... الأمة والمملكة التي لا تخدمك تبيد، وخراباً تخرب الأمم... امحوا أسماء الشعوب من تحت السماء..." !!

وكنعان بعد أن تكالب الجنود عليه كسروا ساعده!، اثنان أمسكا به ومدا ذراعه وثالث أخذ يضرب الساعد بحجر حتى كسر العظم، ثم فيما بعد طردوه من البلاد، قالوا: سيستخدم الأخرى، وقالوا: سب الجنود وقادتهم، سب الدولة وإبليس والكتاب.. قالوا لم يدع شيئاً إلا ومسه شتماً و ... وقالوا: يريد أن يستعيد أنهار اللبن والعسل والخمر التي سرقناها!

قال كنعان في المحكمة: كتابكم إجرام ومؤامرات وخداع، اغتصاب ولواط وسفاح، حرائق وتدمير واعتداء.. وصرخ أمام العسكر: من أين أبدأ يا أولاد الزانية؟

أمن إبراهيم الذي قال عن زوجته إنها أخته لينام الملك معها فيكون له خير بسببها؟ أم من لوط وقد أسكرته ابنتاه وضاجعتاه وحبلتا منه؟ أم من عيسو الذي باع بكورتيه ليعقوب بصحن من العدس؟ أم من أبشالوم ابن داود الذي ضاجع زوجات أبيه على سطح البيت أمام جميع بني إسرائيل؟ أم من داود الذي أرسل جنديه أوريا إلى الموت، ليسرق منه زوجته الجميلة، والتي شاهدها تستحم؟...

وأراد أن يكمل كنعان، ولكنهم أخرجوه من المحكمة إلى الحدود دون توقف..

وقال القاضي لصابر:

- نحن العدل!

قال صابر:

- أنتم الحيات والأفاعي، أنتم السراق واللصوص. وزعيمكم التجأ إلى المغارة ليقود المرتزقة.. سلبتم أرضنا وهدمتم بالجرافات بيتنا، فماذا بقي لنا؟

جئت أحج إلى الأقصى، وعندنا الرجم من مناسك الحج، فرجمت الأباليس. وسكت هنيهة ثم تابع:

- ما أقدس رجم الشياطين، الرجم عندنا عبادة!

قال القاضي صارخاً، وقد انتفخت أوداجه واحمر وجهه:

- قل رميت بالحجر، قذفت بالحجر!

قال صابر:

- رجمت بالحجر، رجمتُ... الرجم ديننا!

وقالت أم صابر للنسوة اللواتي هرعن باكيات إليها:

- لست حزينة، ابني يا عيني أمه، رجم إبليس.. ثم بكت وقالت:

أخبرني بأن الحج دون رجم لا يصح! وكل أولاد المدرسة رفاقه رجموا الأبالسة... ثم ابتسمت، وقالت بعينين حزينتين:

- يخزي العين.. كلهم صابر!

قال القاضي:

- أنت وقح، قل رميت..

قاطعه صابر:

- لو معي حجر لرجمتك.. أنتم من أب هو إبليس، أين ستهربون من الغضب الآتي؟

قال معلم مدرسة ابتدائية في البلدة:

- إبليس أبى أن يسجد لآدم الإنسان، وعلا واستكبر، وقال للرب: أنا خلقتني من النار، وآدم من طين! أنا ابنك المختار، أنا ابنك الذي جعلته سيد البشر، وكل ما سواه عبيد وخدم!

قال الرب: خسئت، إن ابني هو الإنسان، أنت لست مني ولن تكون، أنت إبليس، ملعون، ملعون إلى الأبد.. اذهب بعيداً عني، عليك لعنتي إلى يوم الدين!

قال المعلم:

- إبليس يعلمهم بأن سيعطيهم كل موضع تدوسه بطون أقدامهم، وأنا أقول لكم: لقد خلق الرب لكم الجبال مقالع حجارة، فلتكن بين أيديكم حجارة من سجيل لتجعلهم كعصف مأكول.

وقال أبو صابر مساء عندما هرع العجائز إليه بعد أن هدم الإسرائيليون بيته بالجرافات:

- سمعت المعلم يقول: أمرهم إبليسهم بأن يقتلوا الرجل والمرأة، الطفل والرضيع، البقر والغنم، والجمل والحمار... وأمرهم أن يقطعوا كل شجرة طيبة، وأن يطموا جميع عيون الماء، وأن يفسدوا كل حقل.

نظر صابر إلى الحارس الذي كان يراقبه بخبث ودهاء، ويده على المسدس المنزلق من حزامه تحت بطنه المكور.. إذاً هما يعلمان بالأمر ومهمتهما تسليمي للقفص، وليس كما ادعيا.. قالا: سيفكان قيدي عندما نصل خارج السور.. أطرق رأسه إلى الأرض، وضاق صدره، ثم رفع بصره بغضب تحشرج في حلقه في اللحظة التي صفق فيها الجندي الباب الحديدي، وأحكم إغلاقه من الخارج.

- لم قرار الطرد أيها الأبالسة، يا أولاد الأفاعي، أمضيت سبع سنين عدداً في ذاك القبر، سبع سنوات لم أر الشمس.. بدأتم معي بتوقيف احترازي يوم أديت مناسك الرجم، ثم مددتم الإقامة وقلتم اعتديت بالضرب على رئيس الحرس، وقلتم يجب أن أنفذ ما يأمرني به! أأسجد تحت قدميه وألعق غبار رجليه كما علمه إبليسكم؟ قلت له: سأعلمك من يسجد للآخر، ومن يلعق غبار حذاء الآخر، وجعلته يسجد تحت قدمي، ولم أدر بعدها ألعق الغبار أم لا، فقد رحت في غيبوبة لأيام...

أغلق الجندي فوهة باب السجن، وأخذ يضحك والجندي الآخر بملء بطونهم.. ثم بدأت ضحكاتهم تتلاشى كأنها قادمة من واد سحيق..

وفي ظلمة الزنزانة الحديدية، ضرب صابر بقبضتيه الجدار وصرخ من الأعماق:

- يا أبت، أبت! لم تخليت عني، من مجزرة إلى مجزرة، ومن تهجير إلى تهجير، وفي كل يوم أُصلب من جديد... وفي كل يوم أحمل الخيمة..

وتجلى ربه في ظلمة الزنزانة، فصارت نوراً يعمه الأبصار، فأوجس في نفسه خيفة صابر، وارتعد. فقال الرب بصوت حنون:

- يا بني، يا بن كنعان، لا تخف، إني أنا الرب أسمعك، إني معك.

قال صابر بن كنعان:

- إلى متى يا ربي وها قد مضت خمسون وهأنا ذا مطرود؟!

قال الرب:

- إنه امتحانك لتكون الإنسان، ذاك الشيطان طردته من مملكتي، وفي كل حقبة سيكون، وفي كل مكان سيكون.. جعلته فتنة لمن يريد أن يثبت أنه الإنسان.. ستراه أمامك، خلفك،

في كل الجهات. ووراء كل إبليس أباليس، وخلف كل شيطان شياطين... هم عدوك وعدوي.. ملعون هو.. وحيث الخير والنور، يُرجم الشيطان.. وفي كل زمان يرجم، وفي كل مكان يرجم....

قال ابن آدم:

- يا أبت أنى لي أن أعرفه وهو في كل مكان وزمان، وقد ألبسته جلد البشر؟

قال الرب:

- النور غير الظلام، وعقلك حَكَمٌ، وهو الحق، فأنت الخير والنور والسلام.. وهم الشر والظلمات.. وكل أمة تعرف شياطينها... فالحق بين، والشر بين..

قال صابر: زدني رباه:

- قال الرب:

- عصاني إبليس الرجيم، قال لأغوين عبادك أجمعين.. وأوقعتك في التجربة أيها الإنسان، فتركته يتناسل في الزمان والمكان، ولم أمسخه قردة وخنازير.. ألبستهم لحاء البشر.. ليحقق الإنسان في ذاته الإنسان.. هذه رسالتي في خلق البشر، تلك رسالتك يا بن آدم؛ بقدرها تخرجون من الظلمات إلى النور، ترتقون من البشرية نحو الإنسان.

إني أنا ربك يا بن آدم، خلقت روحك على صورتي، فمن يشوه صورة الحق والخير والجمال، فهو ليس بالإنسان.. ارجمه يا بن كنعان.. إنه الرجس، ورجمك عبادة.

قال ابن كنعان:

- يا أبت، أوصني.

قال الرب: قل للقبائل أن يعقلوا، وأن يصير قولهم عملاً، وأن يعدوا للشيطان ما استطاعوا من قوة، ليرهبوا عدو الخير والنور، وقل لمن يمرغ تحت أقدام إبليس وجهه، لن يكون الشيطان للإنسان ولياً حميماً.

***

لم يطل الأمر فقد وقفت السيارة، وفتح الجندي باب القفص الحديدي وهو يلوك العلكة، وقال لصابر:

- انزل!

كانت فوهتا العوزيتين متجهتين نحو صدره ورأسه، وثمة جنود إسرائيليون يحيطون بالسيارة. شعر بأنه غلب على أمره، وليس هناك أمل بالرفض، بالهرب.. والفوهات لا تحتاج لأية ذريعة

لتنطلق. ولم يطق صبراً فدفع الجندي بكل قوته إلا أن الجندي الآخر ضربه بأخمص البندقية خلف رأسه ففقد وعيه، وأخذ الجندي المذعور ومن معه يركلونه بأحذيتهم، وهو يسقط إلى الأرض.

وصرخ المعلم في أعماق صابر:

- إبليس علمهم فن التعامل مع المسالمين الآمنين، قال لهم: يجب نشرهم بمناشير ونوارج حديد وفؤوس.

ورب الشياطين كان ناراً آكلة، وسيفه يأكل لحماً بدم القتلى والسبايا، وينتشي ثملاً من شرب الدماء.

بصعوبة قام صابر من على الأرض مترنحاً وجرت قدماه جسده باتجاه نقطة الحدود، وأخذ يمسح بكم قميصه الدم النازف من رأسه، فمه، أنفه... وشوك البرية انغرز متلبداً في شعر رأسه.

بدت الأمتار القليلة أمام عينيه تغور في نفق، يمضي به إلى جهنم، فكان يزحف داخل طابون.. التفت وراءه.. كان نهم عينيه لا يرتوي.. وشيء ما في أعماقه يتصلد أكثر فأكثر، ليبقى حياً أمام الذين هم تحت اللعنة!

وقف عند النقطة، وأخذ نفسه المتقطع يشرح لهم حكاية ألفوا سماعها منذ زمن بعيد. ولم يرق لضابط النقطة ذاك التمادي والاسترسال فقاطعه:

- أين جواز سفرك؟

بهت صابر وضحك ألمه ساخراً:

- قبل ساعة كنت في السجن، ومنذ سنين لا أحمل شيئاً سوى الحجر.

وامتقع لونه وتهدلت شفتاه، وتلعثمت الكلمات في فمه، فقال:

- ليس لنا دولة، ليس عندنا جواز سفر، ومنذ أن كانت الأرض كنا، لقد طردوني، قالوا: إني شخص غير مرغوب فيه، قالوا: إنه لا يمكن أن أتعايش مع الأبالسة والشياطين والحيات والأفاعي... ولا أحترمهم!

قهقه الضابط وقال بعجرفة:

- ثم رموك إلينا، وتريد أن تدخل البلاد بلا أوراق، بلا هوية.. ثم همهم، والتفت إلى أحد الجنود الواقف خلفه كعمود مسند:

- أعيدوه من حيث أتى... وسنرسل لهم حجارة!

قال الجندي:

- ولكنه يا سيدي قد..

لم يمهله الضابط حتى يكمل كلامه، فزعق بنبرة حادة، أعيد معها وجه صابر باتجاه الجنود الإسرائيليين.

أحس صابر أن جسده يقوم من بين الأموات، وأنه خرج من نفق جهنم، فارتفع رأسه مبتهجاً نحو السماء، عانقته السنونو، فمضى بخفة ورشاقة.

***

سيارة السجن لما تزل في مكانها، وذاك الجندي الذي قيأ صابراً واقف يتتبع بعينين ماكرتين اقترابه. قال بلغته الركيكة تلك:

- أراك عدت!

نظر صابر إليه بشماتة وقال:

- لم يسمحوا لي بالدخول، لأنني لا أحمل جواز سفر. ثم رفع أنفه بكبرياء وتحد، وتابع: ولكنه سيكون!

احتقن الجندي، وشتم بكلمات عبرية، ثم قال:

- هيا اصعد إلى الصندوق!

ابتسم صابر ساخراً:

- إلى أين، إلى أين يا أولاد الأفاعي؟

قال الجندي بفوهة العوزي:

- إلى السجن، هذه هي الأوامر، أن نعيدك إلى السجن إن لم يقبلوا بك هناك..

نفر الدم من عروق صابر، فقد أحس بأنه يقف عارياً، جحظت عيناه واحمرتا.. وأخذ الجندي يكتم ضحكة هستيرية انزلقت من شدقيه..

تلكأ صابر ملياً.. تحرك ببطء.. نظر في كل اتجاه..

آه! أين أنت أيها الحجر؟ أرني نفسك، عيناي تلوبان عنك، جاء موسم الحج، حان وقت الرجم، ما أقدسك أيها الحجر! أنت اللؤلؤ والياقوت، أنت الحق والخير، أنت الحب والنور، أنت كينونة من لا كينونة له، متى تصير قنبلة؟ أنت الحدث إن لم يبق إلاك صانعه، أنت الماضي، الحاضر أبداً والمستقبل، أنت البرتقال والزيتون زمن السقوط، أنت الخبز زمن القحط.. أين أنت، أين..؟ ..

وحنى جسده، وكادت كفه أن تلمسه، إلا أن الفوهات إلى يديه كانت أسرع، أحاطت به من كل جانب.. وسحلته إلى السيارة.

أغلق الجندي باب القفص وأطل برأسه من الكوة وهو يلوك العلكة:

- ستعود إلى السجن!

وأغمض عينيه نصف إغماض ثم فتحها قليلاً، وحملق إليه، وتنهد، ثم هز رأسه، واستأنف كلامه بتشفٍ:

- هذه المرة ستبقى إلى الأبد، وسنرى كيف سترجمنا!

ثم أخذ جسده يهتز على إيقاع ضحكه الصاخب والمشوب بالحذر.

تأججت النار في رأس صابر، وأمسك قضبان الكوة، ورجم شيئاً ما في فمه كان مكبوتاً منذ زمن بعيد، لكن الجندي أبعد رأسه في اللحظة المناسبة، فقد كان حدسه قوياً، يتوقع ذلك في كل لحظة ومنذ يوم ميلاده. ورغم حذره الشديد، لم يسلم وجهه من الرذاذ، فانهال على صابر بخليط من الشتائم بالعربية وبالعبرية وبما يتعلق مباشرة بملتقى الساقين!

وانفلت لسان صابر من عقاله راجماً الجميع بحجر إثر حجر.

*****

حدث ذات ليلة

الليل أرخى ظلامه الدامس. والمطر ما يزال ينقر زجاج نافذة الغرفة بإيقاع رتيب، ثم ترتفع وتيرته فتمسي قرعاً صاخباً. قمت من جانب المدفأة وتمططت متثائباً، واتجهت نحو النافذة.. الأمطار تهطل بغزارة وتنقذف في كل ناحية. قطرات الماء تتكالب على الزجاج الخارجي، ترتطم به، ثم تسيل خيوطاً ما تلبث أن تتشابك، فتعرض وتثخن.

الأشجار تلوح كعفاريت من بين الأبنية، تتراقص مع نفحات الرياح المتسكعة على هواها. وقد تنحني بقاماتها السامقة أحياناً، فتدنو وتصدم البناء وشرفاته.

الأبنية اتشحت بالسواد إلا أن أضواء شاحبة متناثرة، تشع بحياء من البيوت. وثمة ضوء قوي عند الحاجز الصهيوني في نهاية الشارع.

أنوار أعمدة المصابيح الكابية تحسر شيئاً عن عتمة الشارع. وبين فترة وأخرى ينير البرق تفاصيل أكثر غرقت في ثنايا تلك الظلمة.

المياه تتجمع سيلاً يتدفق نحو البلاليع المتاخمة للرصيف، فتغص بها. فتتراكم وتسح زاحفة في عرض الطريق. تنتظر دورها في العبور إلى المصرف. مكونة بركة تتسع وتمتد.

وعلى جانبي الشارع اصطفت بضع سيارات، وتظهر أحياناً سيارة لاهثة، تطوقها رشاشات ماء تنفر من تحت إطاراتها. يرتشف وابل المطر جزءاً من وميض مصباحيها، وتبتلع الظلمة جزءاً آخر.

لا كلب ينبح كعادته في مثل هذه الساعة. ولا قططة تتهارش في العتمة.

كل لاذ بالدفء في مأواه، شعرت ببرد يخزني، فعدت لأطرح نفسي على الكنبة أحتضن المدفأة.

لهبها يعاند نوبات ريح صرصر تسللت إليه. فيتمايل مترنحاً من ضرباتها وهي في أوج عنفوانها. ثم يتراخى ويستسلم لها، ويتهاوى، فيخبو قليلاً قليلاً، راكعاً، ساجداً في قاع المدفأة.

وفي الوقت نفسه تحترق الريح في أتون الموقد. فتتضعضع قواها وتخور. وتبدأ بالتقهقر، فتصعد إلى الأعلى وهي تزعق. ويستعيد اللهب روحه، ويلتقط أنفاسه، ويستجمع ألسنته وهي في رمقها الأخير. ثم يتأوه ويتنفس الصعداء متقداً متأججاً، وينقض بشراسة مزمجراً وراء فلول الريح المولولة. نافثاً الدخان والسناج والرائحة الكريهة في الغرفة.

وأسرع إلى النافذة أفتحها. فلا أسلم من رذاذ الماء المتسرب من ثقوب المنخل. وأفتح الباب، فيمر تيار بارد ينخر عظامي، متابعاً دربه عبر النافذة حاملاً معه الدخان والدفء خارج الغرفة.

إما الدفء وتحمل سماجة الرائحة، وإما البرد القارس. ولم يكن أمامي أي خيار سوى الركون على مضض إلى الدفء، أترقب ما يقض راحتي في كل لحظة.

سمعت النشرة الجوية: "منخفض جوي يجتاح البلاد، أمطار وسيول، ثلوج على المرتفعات، طرقات مقفلة بسبب الفيضانات، تنبيه لأصحاب السيارات كي يتأكدوا من المكابح والمصابيح، تحذيرات صارمة من الانزلاقات.....".

شعرت بقشعريرة برد ألصقتني بالمدفأة أكثر. أتخيل الرياح القطبية المجنونة تعربد سكرى، والعواصف الهوجاء تزعزع كل ما تقدر عليه، وتخطفه في طريقها.

عدت إلى النافذة. بخار الماء يتكاثف على الزجاج طبقة رقيقة ضبابية.

إصبعي ترتفع بآلية، تكتب ما يعن ببالي. ثم تنزلق السبابة على الزجاج عشوائياً، مشكلة خطوطاً يحرك اللا شعور مسارها كما يشاء.

وفي النهاية لوحة سريالية تفضح المخبوء من عالمي الداخلي. أتأمل العالم الخارجي من خلال الزجاج. قربت رأسي، حملقت، ثمة شبح يمشي باتجاه الحاجز العسكري، متئداً رويداً رويداً!

أخذت أتابع حركاته، أراقبه..

مصابيح الشارع تكشفه. لعله أعرج، إنه يظلع في مشيته، أو كبير السن، عجوز...

يمشي متوارياً بالظلمة، التفت إلى الساعة المعلقة على الجدار خلفي. تجاوزت العاشرة ليلاً. غرقت في التخمين، قلت في نفسي:

لربما أطال المكوث عند أحد ما، ودهمته السماء! إذاً، لم لا يستجير في مدخل بناء، يختبئ تحت شرفة ما؟ ربما فعل وانتظر، لكن انتظاره طال! والجو يزداد سوءاً، فإلى متى يتوارى؟! ولم لم يبق عند مضيفيه هذه الليلة النكراء، بل كيف تركوه يخرج وهم يعلمون بمنع التجول في المدينة ليلاً؟

عيناي تحدقان إلى كل خطوة يخطوها، لزقتا به؛ كوفية تلف رأسه. لن تحميه وكذلك ملابسه، من نفاذ الماء إلى بدنه.

صار قريباً من الحاجز. تجمع البخار ثانية على الزجاج، وزاده زفيري تراكماً. مسحته على عجل.

لمع برق يعمه الرؤية، وتبعه بعد هنيهة قصف رعد مروّع، تلته شلالات اندلقت من السماء.

حملقت، تسمرت عيناي. اختفى الحاجز في غياهب الانفجار. وتكوّم جسد عند طرف الرصيف!

فوجئت بالأمر، شدهت وارتبكت! فتحت النافذة، فدفعتني إلى الخلف ريح عاتية ورشقات من المطر. لمحت أنواراً انبثقت، نبعت من الأبنية الرابضة في العتمة.

تركت النافذة، هرعت إلى باب الشقة، خرجت مسرعاً. دهشت! الشارع خلع الظلمة، وارتدى الأنوار.

معظم الشرفات والبيوت المتاخمة للشارع أضيئت! والناس يتوالون بالمصابيح والفوانيس والمظلات! الجلبة واللغط يملأان الأفق!

أصوات تتعالى، تصرخ؛ أسرعوا، هاتوا بطانيات، احملوه، لتأت سيارة، اجلبوا....

شققت لنفسي طريقاً بين الزحام. رجال وغلت أرجلهم في المياه. وقد حملوه برفق، من المياه، لفوه ببطانية، دثروه جيداً.

استبدلت كوفية جديدة بكوفيته التي تعصر ماء.

نقلوه بتأن وتؤدة إلى سيارة استقرت في تلك اللحظة عندهم.

صعد واحد منهم إلى جانبه، وأخذ يمسح بالمنديل الماء والدم عن وجهه، بينما كانت كفه الأخرى تربت على كتفه.

قسمات الوجوه المشوبة بالأسى والجزع، انطلقت أصواتها، تصاعدت..

هدر محرك السيارة، وانطلقت بمصابيحها الباهرة، وببوقها المعول، من بين صفين من الناس، شيعوها بقلوب حانية، غاضبة، وبهتافات تلاشى معها صوت الرعد.

*****

التحقيق

عندما فتح مصطفى عينيه لم ير شيئاً فقد غطتهما العصابة، لكنه أحس بأنه تحت سياط الشمس المحرقة، وقد ربطت يداه إلى قدميه، داخل قفص حديدي تزداد حرارته قليلاً قليلاً... ولما انتصف النهار شعر أنه في الطابون!

العصابة تضغط على عينيه، القيود تضغط... الشمس تشويه... سخونة أرض القفص الحديدية تلسعه... والعرق يتصبب من جسمه ماء، الذكريات تخنقه، ولا يستطيع حراكاً!!

كان نائماً باطمئنان في البيت، وفجأة استيقظ على طرقات الباب العنيفة، نهض من فراشه مذعوراً، نظر إلى الساعة، تجاوزت الثالثة صباحاً، دهش واندفع نحو الباب، وما إن فتحه حتى اندلق خمسة أو ستة جنود صهاينة.

دفعه أحدهم جانباً ببندقية العوزي المصوبة نحو رأسه، وانطلق البقية في أرجاء غرف الدار، أجبروا من في البيت على الاستيقاظ وكوموهم في الزاوية بفوهات البنادق! ثم ساقوهم كالقطيع رغم الاحتجاج والصراخ والعويل، خارج البيت في العراء.

وأخذ ثلاثة منهم ينقبون في كل مكان ويعيثون فيه فساداً!!

اثنان منهم عصبا عينيه وكبلا يديه خلف ظهره بعد تعريته من ملابسه، وسألاه عن أسماء بعض رجال الانتفاضة، والسلاح، فأجاب:

- لا أعرف شيئاً!

أخذا يضربانه على وجهه وجسمه وهو عار، أمام عائلته: زوجته، ابنه الصغير وابنته، أمه العجوز!!

ثم تعاون ثلاثة على جره وهو يقاوم، وقذفوا به داخل السيارة العسكرية!

في السيارة أرغموه على أن يطأطئ رأسه بأعقاب البنادق بعد أن أخفقت أيديهم، وأجبروه على حني ظهره طوال الطريق!

لم يكن يعرف أين يمضون به، في ظلمة الليل وظلمة العصابة على عينيه. وبعد أن توقفت السيارة، ووطئت قدماه الأرض، بدأت الركلات واللكمات تنهال عليه من كل ناحية وهم يجرونه، فتكوم على الأرض فاقد الوعي!

كز على أسنانه بقوة:

- جبناء.. فاشست!!

***

غابت الشمس ففتح القفص وأخرجوه، فكوا قيد رجليه، وسحلوه إلى غرفة في البناء المجاور، لتستقبله الضربات؛ على الظهر والبطن واليدين والقدمين، وفي كل ناحية من جسمه... كان يشعر بأنها ضربات قضيب معدني... ثم أجلسوه على كرسي حديدي وأحكموا وثاقه بالكرسي، وفكوا عن عينيه العصابة، فقال المحقق:

- هذه البداية، فاعترف أفضل لك!

التقط مصطفى أنفاسه، وأخذ يحرك عينيه في كل الاتجاهات، يغلقهما ويفتحهما ليعيد إليهما الرؤية...

اتضحت معالم الصورة أمامه، فنطق:

- لا أعرف شيئاً!

***

تهالك النعاس والتعب والألم عليه، فلم يعد مصطفى يقوى على فتح عينيه عندما أعادوه من غرفة التحقيق إلى الزنزانة.

اثنتان وأربعون ساعة من التحقيق المستمر، تبدل خلالها أكثر من ثمانية ضباط محققين. ولكل واحد منهم طريقته وأسلوبه وفنه، كل واحد مدرسة فنية متكاملة!!

اثنتان وأربعون ساعة دون استراحة أو طعام أو نقطة ماء!!

اثنتان وأربعون ساعة مكبل اليدين والقدمين ومضغوط في كرسي لا يستطيع فيه أن يتحرك!

أحد المحققين أمسكه من رقبته، ولواها، فسمع مصطفى صوت قرقعة الفقرات!

ويزداد الشتم، والتعذيب.. وتغيم الدنيا في وجهه، وتتلاشى الأنوار الباهرة المسلطة عليه، وهو بين الصحو والغيبوبة، بين الموت والحياة، ولسانه يكرر برتابة:

- لا أعرف!!

***

حين فتح عينيه، رأى أمامه رجلاً يبتسم له:

- صح النوم!

أخذ يستعيد روحه ووعيه، فسأله:

- أين أنا، ومن أنت؟! كم مضى من الوقت وأنا نائم؟!

- أنت في مركز التحقيق بمستعمرة بتاح تكفا، قضاء يافا.

وبعد أن قدم كل واحد نفسه للآخر، قال شريكه في الزنزانة:

- المركز له شهرته الوحشية في القمع والتعذيب!

بناء من عدة طبقات، الزنازين في القبو تحت الأرض.. وفي الطوابق العليا المكاتب وغرف التحقيق.

نظر مصطفى حوله؛ زنزانة مساحتها أقل من أربعة أمتار مربعة، بلا نوافذ معتمة قاتمة إلا من ضوء شاحب، تفوح منها رائحة الرطوبة والعفونة، حيطانها خشنة الملمس حادة..

قبعت في إحدى الزوايا دورة مياه ومغسلة حديدية بالية، وهناك ماسورتان تتدليان قرب السقف الوطيء للتهوية!

قال شريكه:

- تتسع الزنزانة لشخصين بصعوبة بالغة كما تلاحظ، ولكنهم أحياناً يضعون فيها ثلاثة، المهم أن تكون حذراً، فقد يصادف أن يكون جاسوساً، عميلاً!

***

مرت الأيام قاسية، رتيبة قاتلة، لا يدري في أية لحظة يبدأ التحقيق، وإذا ما بدأ لا يعلم متى ينتهي!

قال له شريكه مرة بفضول:

- أنا من التنظيم العسكري... وأنت من أي تنظيم؟

بهت مصطفى فأجاب:

- لست منتمياً إلى أي تنظيم!

- ألست من... ؟

احتد مصطفى قائلاً:

- لا! ولكن ما غايتك من السؤال!؟

ارتبك الشريك وتنحنح قليلاً:

- لو أعطيتهم بعض المعلومات المعروفة، لربما يعفون عنك، كيف تتحمل، ارحم نفسك فيعيدونك إلى بيتك، ألم تشتق لزوجتك، أولادك.. !؟

قاطعه مصطفى ساخراً:

- وهل أعطيتهم أنت!؟

سكت الآخر والتزم الصمت، فتابع مصطفى:

- اسمع، أنا لا أعرف إن كانت نواياك حسنة أم لا، ولكن أحب أن أخبرك شيئاً، إن المعلومات التي يسألونني عنها معروفة للصغير والكبير، وهم يريدون من استجابتي لطلبهم إذلال كرامتي الوطنية أولاً وإذلال رجولتي ثانياً، ثم ستبدأ الخطوة التالية بالسؤال عما لا يعرفونه هم فعلاً!

على كل، لا أريد الحديث في كل هذه القضايا، فلندع أيامنا معاً تمر على خير!

***

سيق مصطفى في إحدى المرات، بعد مرور شهرين على توقيفه، إلى عيادة السجن لمقابلة طبيب نفساني. ولما صار بين يديه، أخذ الطبيب يتفرس فيه، ثم سأله بلطف ودماثة وهو يربت على كتفه:

- خبرني عن أحوالك، آلامك، همومك...!

شعر مصطفى بشيء من الاطمئنان إليه، ولاسيما وهما وحدهما في الغرفة، فأخذ يحدثه عن آلامه وهمومه، وصراخ الذين يتعذبون!

قال الطبيب وهو يقدم له سيكارة:

- حدثني عن ملاحظاتك كلها حول هذا المركز اللعين!

- شكراً، أنا لا أدخن، ولكن سأخبرك بكل ملاحظاتي كما تخطر في بالي!

- تفضل!

- تمر فترات طويلة لا يسمحون لنا بالاستحمام، انظر إلى ملابسي الوسخة وجسمي الوسخ، ألا تزعجك رائحتي القاتلة!

وبالمناسبة ذات مرة سمحوا لي بأن أستحم، ولما خرجت من الحمام اقتادوني إلى غرفة مكيفة لدرجة أنني شعرت بأنني أتجمد!

ومرة أدخلوا إليّ مومساً شبه عارية، كانت ساذجة، مبتذلة في طرح أسئلتها، فلم ألتفت إلى إغراءاتها، فصفعتني وبعقت بأبشع الألفاظ وخرجت... أنا أحب زوجتي وأطفالي، وقد اشتقت إليهم!

أعاني من آلام شديدة في رقبتي، وذات يوم ازداد الألم، وأخبرت السجّانين، ولكن لم يكترث أي منهم. وازداد الوجع وصرت أتلوى.. فأخذوني إلى طبيب السجن..

استقبلني ببشاشة، وأخذ يفحص رقبتي، وتأوه وقال: تحتاج إلى تصوير.. وسكت قليلاً وسألني لم لا أتعاون معهم في التحقيق، فيرسلوني إلى المستشفى، فعلى ما يبدو

هناك كسر في الفقرات كما قال.. وشجعني بأن أمهر الاختصاصيين سيعالجني، وأغراني بقوله؛ وستعود إلى بيتك، وبؤمنون لك راتباً جيداً إن استمررت بالتعاون معهم!!

قلت له أنا لا أعرف شيئاً، ولا أريد شيئاً منهم سوى إطلاق سراحي!

أو تعلم ماذا فعل الطبيب؟

- ماذا؟

- صفعني، ومن ثم أعطاني حبة إسبرين وقال للحراس: خذوا ابن الـ... من وجهي!

وماذا أيضاً؟

- لقد منعوا عني المحامي وزيارات الصليب الأحمر والأهل!!

همهم الطبيب:

- تابع!

- لقد حدثت عدة حالات تسمم نتيجة الأكل المزري، والذي تفوح منه غالباً رائحة الفساد والتعفن، والوجبات كلها لم تكن سوى لقمات تثير الغثيان ولا تسمن ولا تغني من جوع!

***

اقتيد مصطفى منتصف تلك الليلة إلى غرفة التحقيق... لاطفوه، وأبدى المحقق قلقه من رقبته:

- سنرسلك إلى المستشفى، ولكن نريد بعض المعلومات الصغيرة، ها!!

وكعادته، أنكر معرفته لأي شيء. فبدأت الأسطوانة التي ألفها، ولكن هذه المرة اقتصر تعذيبه على النقاط الأكثر إيلاماً والتي باح بها إلى الطبيب!

ولما أفاق، وجد نفسه في زنزانة انفرادية مساحتها أقل من متر مربع، خالية من مرحاض أو حنفية ماء، وإذا أراد أن يقضي حاجته يحتاج إلى تكرار الطلب والصياح عشرات المرات حتى يخرجه السجّانون ليفعل ذلك في المرحاض، تحت وابل من المسبات والضرب!

وصاروا يسمعونه أسطوانة جديدة يكررونها على مسامعه؛ التهديد بنسف بيته، باغتصاب زوجته، بقتلها، بقتل أطفاله، إن استمر في الإنكار!!

ومضت سبعة أيام فقد المحقق خلالها أعصابه، وفي نهايتها طرده وهو حانق يرغي ويزبد كالمعتوه:

- عنيد، حجر، لا فائدة!

***

بعد ثلاثة أشهر ذكرت أخبار العدو أن... مصطفى.... نقل من مركز التحقيق في.. إلى سجن في صحراء النقب!

*****

فستان العيد

صار عمر إيمان خمس سنوات، عاشتها في هذا البيت الذي أكله الفقر، ونهشت جدرانه الشظايا. ولم تعرف من الدنيا الرحبة والفسيحة سواه، وسوى الحارة الضيقة المتعرجة... تفتحت عيناها على دوي الانفجارات والحرائق والدخان... الخوف يملأ عينيها وجوارحها ويسيطر على كيانها، فترتعش كوردة تعبث بها رياح تشرينية!

المخيم يخلو من الحدائق أو الملاعب، ولم يتبق خلال الحصار للأطفال، غير اللعب في الحارة والزيارات، وسماع الأحاديث عما يجري. كلمات تفهم، وأخرى كثيرة يحجبها الضباب... فتأخذ أمها فتحية وأبوها مروان بالشرح... ولقد التقطت أذناها كلمات لها سحر غامض خاص يحملها بعيداً خارج فضاء الطفولة: قصف، انفجار، طائرات، دبابات، اعتقال، حصار، هجوم، جرح، موت، استشهاد....

وأخذت هذه الكلمات تكبر وتتعمق معانيها مع نمو جسدها وعقلها وروحها.

قبل سنة أو أكثر كانت تخاف من أصوات الانفجارات والطائرات، بل ومن رؤية جندي صهيوني غارق في لباسه وأسلحته، وتركض رامية نفسها هي وعويلها في حضن أمها ، فتشعر بالدفء والاطمئنان، وتحس بانسياب الدموع الحارة من عيني أمها وهي تتساقط على شعرها وخدها المشدود إلى صدر أمها التي سورتها بيديها..

لكنها الآن ابنة السنوات الخمس، وقد اعتادت على سماع تلك الأصوات المرعبة! صحيح قد تجفل أمام انفجار مفاجئ، وقد ترتعد لهنيهة، وخاصة إن أيقظها من سباتها على وقعه الشاذ. إلا أنها سرعان ما تستعيد ذاتها المتلاشية مع الدوي الفظيع والمريع، فيحمر وجهها، وترتجف شفتاها ثم ينزلق إلى لسانها ما اختبأ في أعماقها من ألم وتوتر قديمين:

- مجرمين، قتله، حرميه، سرقوا وطنا... حنحاربهم ، حنقتلهم ، حنطردهم من بلادنا..

***

قبل أن تبتلع زنزانات المستعمرين أباها مروان، اعتادت أن تراه وهو يرمم باستمرار تهرؤ الجدران، وقد بقي ذات مرة حتى منتصف الليل، وهو يعمل مع شباب الحارة على سد فجوة باللبن بعد أن فتحتها قذيفة التهمت بيت جارهم أبي أحمد!!

أبوها لا يكل ولا يتعب ويقول بعد أن ينتهي من عمله: فليدمروا وليخربوا، سنعيد بناء كل شيء، إما نحن أو هم ... والزمن بيننا طويل! ولكن هذه المرة، بعد أن انتهى القصف، نظر

إلى أبي أحمد الذي استشهدت ابنته نضال في عملية استشهادية قبل أيام، وربت على كتفه، واحتد صوته، فصرخ:

- فاشست...

وقعت الكلمة على أذن إيمان، فتشربتها شراييها وأعصابها، وتزعزع قاموس كلماتها، فتساءل فضولها:

- بابا شو يعني فاشست؟

نظر مروان إليها بحنان، ولملم حنقه فقرفص تجاهها:

- هؤلاء المستعمرون الصهاينة هم فاشست يعني...

وصمت لحظة مرتبكاً... فقالت:

- يله بابا كمل؟!

اصطاد كلماته بصعوبة ليتابع:

- عندما تكبرين ستفهمين كل شيء.. الفاشست مثل كلمة النازيين.. وهذه شرحتها لك... يعني مجرمين ، إرهابيين ، لصوص، عنصريين....

رفع الزهو رأس إيمان؛ ها هي كلمة جديدة تقتحم عالمها الضيق، وستحدث وفاء عن كلمتها التي أحست بأنها فهمتها!

***

كان مروان في طريقه إلى نابلس عبر الحقول والطرقات الالتفافية الوعرة فليس ثمة طريق غيرها، فالجنود الصهاينة في كل مدينة وقرية، وفي كل شارع وساحة.. وآلة المستعمر تحيط بهم من كل جانب.

وحتى هذه اللحظة، لم تعرف فتحية مكان سجنه، رغم إلحاحها الشديد للسؤال عنه في كل مركز أمني أو عسكري. والجواب إما أن يطردوها، أو يهددوها أو قد يشتموها، فتعود خائبة!!

ولقد قررت البقاء في البيت، والكف عن السؤال، لأنها واثقة من عودته!

قال أبوها:

تعالي يا بنتي أنت وإيمان لتسكني عندنا حتى يعود مروان!

ولكن محاولات أهلها ليأخذوها وابنتها إلى بيتهم، اصطدمت بتوسلات أهل مروان لاصطحابها معهم إلى بيتهم، وكلاهما خسر المنافسة أمام جيرانها، فقد وقفوا بصلابة وعناد، وقالت أم خالد:

- هي في عيوننا، ولن نتخلى عنها وعن إيمان طالما مروان في السجن...

أخذت إيمان تنظر بدهشة، وحيرة، عندما سألوها عن رأيها، فكرت ملياً، ثم قالت:

- يوم عند تاتا أم مروان، ويوم عند تاتا أم فتحية، ويوم ببيتنا مع خالة أم خالد....

حال فتحية كحال نساء مخيم جنين كلهن، فهي ابنة المخيم نفسه، وأهلها كأية أسرة من أسر المخيم. وهي لا تشكو ولا تتذمر ولا تتأفف، ولكنها تطلق زفرات طويلة مع كل كارثة ومصيبة، وكأنها رياح حارة تخرج من أعماقها البركانية، لتلفح وجوه من حولها.

***

فاحت إيمان بدماثتها العطرة ونعومتها، فأضفت على البيت حباً، جعلت مروان وفتحية أكثر التصاقاً ببيتهم. لقد عمره مروان حجراً حجراً أيام خطبته لفتحية، وكانت تساعده أحياناً هي وإخوتها إذا اقتضى الأمر.

وحكايات أفراح مروان مشت متهامسة في المخيم من بيت إلى بيت ومن حارة إلى حارة... فرحة مروان الأولى عندما انتهى من بناء البيت، والثانية عندما تزوج فتحية، والثالثة إيمان هذه التي ملأت البيت مرحاً وحيوية فصار- كما يراه مروان- قصراً يحبهم ويحبونه.

والفرحة الرابعة.. مشتركة بين الجميع.. يوم تحرير فلسطين، ولكن رأي أبي مروان، هي الفرحة الأولى!

صارت إيمان في السنة الخامسة، ولم تذهب إلى روضة الأطفال، ومن يمتلك مالاً من سكان المخيم ولا سيما أيام الحصار والجوع، ليدخل أبناءه إلى رياض الأطفال!!

إلا أن إيمان وشوشت في أذن صاحبتها وفاء:

- أمي ستدخلني مدرسة الأونروا!

هكذا وعدتها فتحية، ولم تنتظر الظروف، فدوماً كانت تجد وسيلة ما لحل ما يعترضها من عقبات. فقررت أن تبدأ بتعليمها منذ أكثر من سنتين.. بدءاً من حروف الهجاء ثم الكلمات.. الجمل.. القراءة... الكتابة... حتى جمع الأرقام الصغيرة وطرحها.. وإلى جانب ذلك شيء ما من الجغرافيا والتاريخ.. شرحت لها جغرافية فلسطين، من نهر اليرموك وحتى البحر المتوسط، ومن صفد وحتى العقبة، وحدثتها عن تاريخ فلسطين...

وإيمان كما تقول فتحية لجاراتها وهن يتحدثن أمام مصطبة الدار:
- يخزي العين، تلتقط كل شيء بسرعة... وتسألني عن الصهاينة أشياء ما بعرف كيف بدي أبسط لها الكلمات، وعندما أعجز عن ذلك، أتكلم معها، وكأنما أتكلم مع طالباتي في الصف.. وإذ بها تفهم كل شيء تماماً كما شرحته لها!!

***

العيد على الأبواب، ولعل أهل المخيم لم يعرفوا الأعياد منذ أزمان، حتى فتحية نفسها لم يعنها أمره، وخاصة بعد اعتقال مروان منذ أكثر من سنة. ولكنها في هذا العيد قررت أن تخيط فستاناً لإيمان!

الأطفال لهم عالمهم الخاص، ولا يتنازلون عن حقهم في الفرح، فلا الطائرات ولا الدبابات تنتزع منهم ذاك الحق! ينسون الآلام كلها، والخوف ينسونه فيمضي خجولاً يعرج بين الحارات، وكل شيء يتبخر إلا الحب والفرح...

يصنعون الفرح من لا شيء، يخلقونه... هكذا هم، وهكذا هي إيمان...مشت نحو أمها التي كانت في المطبخ، وحملقت في وجهها، ثم قالت بلهجة استعطافية:

- ما بدك تعمليلي فستان جديد، دايماً بتقولي بكره!

واكتأبت وكادت أن تقفز من عينيها الدموع، لكنها لجمتها وبلعتها ولم تكمل كلامها. فضمتها فتحية لتدع دموعها هي تنزف بدلاً من ابنتها، وقالت لها وهي تمسد شعرها الناعم:

- والله سأخيطلك أحلى فستان، واليوم سأشتري القماش!

أشرق وجه إيمان واتسعت حدقتاها فازدادت عيناها جمالاً، وملأت الابتسامة الممتدة من أعماقها، وجهها ويديها وجسدها الناعم والمطبخ كله... ولم لا، وقد تمحور العالم كله في الفستان!

وبعد العصر خرجتا معاً لشراء القماش.

في المخيم يسهل التعامل مع الدكاكين، ودفاتر أصحابها تمتلئ بأسماء المستدينين. ونزل اسم أم إيمان في صفحة جديدة:

- ثمن قطعة قماش زهرية اللون... وأضاف البائع جملة لا علاقة لها بلغة الحسابات، بناء على طلب إيمان:

- عشان تخيطها فستان إلي...وتابع البائع: أي إيمان...

ولم تتلكأ أم خالد ولم تتردد في مساعدة فتحية على خياطة الفستان.

في المخيم أصحاب مهن متعددة، يقدمونها مجاناً لمن يلجأ إليهم من سكان المخيم، أما من خارج المخيم فلا بد من أجر ضئيل يقي صاحبها التسول والشحاذة!
فالمخيم جمع بين حاراته مشردين من كل مكان: حيفا ويافا وعكا... وقد لفهم بعباءة الفقر فاحتالوا عليه بالحب!

***

قبل العيد بيوم كان الفستان يبتسم جمالاً على ضحكات جسم إيمان البض المتلألئ. دارت دورة في وسط الغرفة بعد أن تأملته في المرآة.. ورمت بنفسها بين ذراعي أمها تقبلها وتقبل أم خالد...
قالت إيمان في نفسها:
- نعم! فليأت العيد الآن، ها هو فستاني جاهز ينتظر، وها هي شريطة ذيل شعري من القماش نفسه.
الفستان في ذاته فرح، في ذاته عيد، وإلا ما هي اللحظة الحقيقية للفرح، للعيد، عند الأطفال!
وفي الحقيقة لم يكن مجيء العيد يشغل بالها، إنما انتهاء الفستان، فقد تجلى العيد في الفستان.
قالت لأمها:
- ماما خليني أورجي الفستان لوفاء.
وفاء تسكن في الحارة نفسها، ولا يفصل بيتها عن بيتهم سوى أربعة بيوت متلاصقة متلاحمة كأنما هي مجموعة توائم.
قالت أمها:
روحي يما، بس حافظي على نظافته، ولا تجلسي على الأرض ولا تتأخري!
انطلقت إيمان وذيل شعرها ينوس كرقاص الساعة، ولكن إيقاعه غير ثابت، فهو يزداد سرعة مع نغمات قدميها وهما تتهاديان فوق الأرض.
مرت من أمام علي... وهو جالس على كرسي بلاستيكي، وقفت أمامه:
- شوف، هذا فستان جديد خيطته إمي إلي.
وقف علي مشدوهاً وقال متأوهاً:
- اوه، حلو كتير، وأنا ماما اشترت لي بنطلون حلو، لونه سماوي.

قالت إيمان:

- بشوفو بعدين، أنا هلق رايحة أورجي فستاني لوفاء.

- خديني معك!

- يله تعال.

صرخ علي من شق الباب:

- ماما، أنا رايح مع إيمان لعند وفاء.

وارتد صوت خافت من الداخل:

- روح يما حبيبي بس ما تتأخروا.

أمسكت إيمان بيد علي وانطلقا وهما يتحدثان عن البنطال والفستان.

وقفا أمام باب بيت وفاء، قرعت الباب بكفها الناعمة... ولكن صدى القرع كان أقوى... صوت أراد أن يقتلع الحارة من جذورها، حريق اندلع، وزوبعة غبار ملأت سماء المخيم..

خرج أهل الحارة كلهم، وهرع سكان الحارات الأخرى المجاورة والبعيدة..

وتعالت الأصوات... صاروخ أباتشي... انفجار... الله ينتقم منهم...

أحاط أهل المخيم ببيت وفاء، وقد صار كومة تراب وأنقاض...

أطفأوا النيران التي تحول دخانها إلى غيمة غطت المخيم، فجعلته عتمة والشمس تسطع في السماء... وشرعت عشرات الأيادي تبعد الأنقاض، دموعهم اختلطت بالعرق والتراب وصيحات الغضب والثأر...

وبدأت تتكشف أطراف جثث محترقة من بين الحطام، وثمة يد صغيرة محترقة غطاها الدم والتراب، والأصابع تحتضن كفاً صغيرة أخرى.....

فتحية جامدة مذهولة قد انفغر فاهها...عيناها تلوب تائهة مجنونة لا تدري ماذا تفعل.. ولكنها وهي المعروفة بصبرها وصمتها، انفجرت فجأة كالبركان مولولة:

- نازيين...

*****

المجنون

كان يتأمل النظارات المبعثرة على الوجوه، ويتابع حركات الأيدي والأصابع، إنها ترتفع، تنخفض، تنثني، تتجه نحو اليمين، نحو اليسار، نحو الأعلى، نحو الأسفل، تتقارب، تتباعد، تتقلص، تتمدد...

الرؤوس تهتز، آهات تنفلت من عقالها بين آن وآخر. الأقدام تتحرك بوتيرة واحدة، تستبدل موطئها. الأجسام تهتز بعصبية بين فترة وأخرى، ثم تعود فتتراخى في جلستها.. علب التبغ تنتهي واحدة إثر الأخرى.

أمامه عند موضع عينيه ارتمى جسد ضخم حجبته نظارة سوداء، يتدلى شاربه فوق شفتيه ولم يكن يرى فيه غير فتحة تظللها شعرات من شاربه.. الفجوة تفتح والعيون تتلقف:

- نريد بديلاً لهذا الواقع، ويجب أن يكون هو ما نريده، وإلا، فالبقاء على الواقع الموجود حتى خلق البديل المطلوب....

عيناه ملصقتان بتلك الفجوة التي تنضم وتنفرج.. وتنتقلان لتمرا عبر بطن كاد أن يفتق ما يستره وقد ارتخى مالئاً ما بين مسندي الكرسي. صاحب البطن المهتز يتابع:

- إن مجرد البديل كشكل لن يقدم شيئاً، إنه لن يعطي إلا انعكاسات سيئة...

الوجوه تتابع حركة شفتيه، الصمت يخيم إلا من كلامه، وعبق الدخان يملأ الغرفة ضباباً كثيفاً. وصاحب الكرش يتابع:

- الواقع الذي نفكر فيه شيء، والإمكانيات شيء آخر، يجب أن ندرس هذا الواقع وتلك الإمكانيات دراسة عميقة وشاملة وطويلة!

للمرة العشرين ولربما أكثر يسمع عبد المتوكل هذا الكلام، وقد حفظه عن ظهر قلب، واعتبره في لحظة ما إنجيلاً مقدساً!

في المرة الأولى شدّه نزول الوحي، وفي المرة الثانية هبط عليه التفاؤل، وفي المرة الثالثة صرخ: الثورة ستشتعل، وفي المرة الرابعة لم يتمالك نفسه، فقد قفز عن كرسيه في الهواء فالثورة ستجتاح العالم، وفي الخامسة أدرك سراً ودونه سر خاتم سليمان، فخطورتهم تلف الكرة الأرضية، وفي السابعة... وفي الثامنة قال: الله، الله.. وفي التاسعة ما شاء الله.. وفي العاشرة بدأ الحلم يتمزق... وجاءت العشرون وقد فقد كل خيوط الأمل، فهناك الظروف الموضوعية والذاتية... ولم ينضج أي شيء... أي شيء..

كان في طريقه إلى البيت وهو يثرثر مع نفسه مستعيداً شهوراً من الذكريات...
الواقع.. الواقع.. الظروف الموضوعية... الذاتية... الإمكانيات..
قال محدثاً نفسه:
- متى نخرج من هذا الواقع المأساوي إذاً ؟
ألن نعمل شيئاً، يجب أن نعمل، أن نبدأ، أن نضع أنفسنا في بداية الطريق.. يجب أن نريح ألسنتنا قليلاً!
أن نعمل، أن نعمل.. أصابه القرف.. سئم شرب الشاي والقهوة.. مله الدخان في غرف مغلقة جدرانها صامتة تتحدث عن عالم خارجي لا تراه بعينيها وتريد أن تغيره!
نعم أن تغيره بعبق دخانها! وجوها الذي يثير الروعة والرهبة!
- أنتم كالخفافيش تحيون في الظلام. الحياة رائعة، الشمس، الماء، الهواء النقي، الطبيعة. العالم الخارجي رحب، واسع..
- إنهم لا يرون إلا أعماقهم، لا يرون شيئاً.. كل شيء في أعماقهم بمعزل عن كل شيء فهم يجسدون أعماقهم ليس إلا!
لم يذكر عبد المتوكل أنه خرج مرة من تلك الجدران، إلا وقد وجد العالم الخارجي غير عالم ما بين الجدران المغلقة. لذا قرر في النهاية أن يبتعد عنهم حتى يرى الضوء، يرى الشمس، يرى الطبيعة، يرى الحياة على حقيقتها!
أفواه أطفاله تصرخ في وجهه:
- إنك أب زائد، لا مكان لك في المجتمع! أو تشبع بطوننا بكلماتك!
زوجه كمدقة الجرن تدق في رأسه:
- إلى متى سنبقى هكذا؟
البقال، اللبان، صاحب البيت.. الفواتير، الديون... كلهم وراءه، أمامه، فوق صدره.. ينهشون في عظمه.. أما لحمه فقد نهشوه منذ زمن بعيد!
كان يسأل نفسه:
- ترى أتغير الجدران معالم الإنسان، معالم الوجود؟
ترى أيتغير الإنسان بتغير المكان؟
ويضحك من سذاجته:
- لو لم أكن فقيراً، ماذا سأكون؟ وكيف سأكون؟!

كان فيما مضى يداعبه خيال جميل عما يمكن أن يكون. ها هو يقود سيارته الفاخرة، خرج من قصره وكان مدعواً لحفلة عشاء أقامتها إحدى الشخصيات الكبيرة والغنية.. ملأته نشوة.. ولكن انتبه لنفسه، فبصق مشمئزاً..

- تفوه! ثم استدرك: ولكن لم لا يكون الأمر كذلك لنا جميعاً، ما المانع؟!

لعن نفسه وخياله الواسع وتابع سيره على غير هدى، ولكن أحلام الطفولة لاحقته. كان يتمنى أن يكون أميراً حتى يحبس صاحب دكان الحلوى في حارتهم، ليتمكن من أكل ما فيها من الحلوى!

هز رأسه:

- إيه، وكبرت والله يا عبد المتوكل، وكبرت معك الأحلام، ولكن هل الحياة خلقت لأولئك الكلاب فقط! واقشعر جسده.. تذكر كلب البيك وشعر بغصة حادة في حلقه فكلب البيك يأكل لحمة يا عبيد الله!

زوجه عائشة أنجبت له سبع بلاليع وهيهات أن تمتلئ.. وكلب البيك يأكل لحمة، وثمن علبة اللحمة الواحدة تكفيه مع بلاليعه أكثر من أسبوع!

ضحك من نفسه ولعن كلب البيك الذي بسببه سجنوه!

فهو يذكر تماماً يوم مدّ القاضي رأسه الأصلع من فوق المنبر:

- حكمت عليك المحكمة بالسجن لمدة ثلاثة أشهر بجريمة السرقة.

- ولكن يا سيدي كانت علب لحمة لكلب البيك!

- هذا ليس مهماً، المهم أنك سرقت!

- وهل الكلب أغلى من أولادي؟

- ولأنك وقح زدناهم شهرين!

وهكذا اكتمل نصاب ربه، فكان خمسة أشهر أمضاها في السجن.. أما أسرته فالله وحده يعلم كيف عاشت من بعده!

في السجن الكل تعاطف معه، حدثهم عن فقره، عن أبيه الذي تركه ولم يتجاوز الثالثة عشرة. حدثهم عن عمله الذي كان يأخذ كل يومه تاركاً له فتات ساعات النوم لا غير. وحدثهم عن أجره لقاء ذلك من البيك، ثم عن عائشة زوجه وعن أفواهه السبعة...

الكل في السجن أحبه.. أحب كلامه البسيط عن الواقع، عن الفارق بين الإنسان والكلب، عن التغيير.. ولكن كيف والبيك هو الأمير! وهذا ما لم يتوصل إليه عبد المتوكل..!

في السجن وجد الجدران المقفلة.. التقى سعيداً قاتل زوجه، ومحمود مهرب الحشيش، وأبا الكل -كما كانوا يكنونه- صاحب اليدين الساحرتين.. كان يسرق ليعيش، لم تكن أحلام أبي الكل كبيرة.. ولم يحلم قط كحلم عبد المتوكل!

كان ابن أبي الكل يريد خبزاً، لباساً صوفياً، فالشتاء جد بارد. وكان السجن طريق أبي الكل إلى بائع الثياب الصوفية!

يذكر عبد المتوكل بأنهم علموه في المدرسة الأمانة والصدق، ولكنه في السجن اكتشف معنى ذلك، فصرخ وهو يسير في مدخل حارته:

- إن ذلك يعني حفظ أموال الأغنياء من الفقراء!

مهرب الحشيش كانوا يلقبونه بالطبيب. وجه بشوش. وصفاته الطبية صالحة لك مرض. وصفاته تنسيك آلامك، تجعلك تحلم بالخبز، بالدجاج، باللحم، بالسيارة، بالقصر... إلا أن عبد المتوكل لم يطمئن قلبه إلى وصفات محمود.. فبصق على الأرض وصرخ دون أن يعير التفاتة لجاره وهو يسلم عليه في الطريق:

- نريد وصفة تجعلنا نحلم حقائق.. حقائق.

سعيد قاتل زوجه يقولون إنه يحبها، ولم يفهم عبد المتوكل كيف يؤكدون بأنه يحبها، وفي الوقت نفسه خنقها بيديه!

لن ينسى يوم اقترب سعيد منه وأطلعه على مشاعره.

- أتعرف يا عبد المتوكل بأنني أحببتك، فأنت طيب..!

صاح كديك في طريقه للذبح وتخيل رقبته تمتد لتسهل عمل سعيد!

استغرب بائع الفول من عبد المتوكل وهو يصيح في الشارع كالديك، ناداه ولكن عبد المتوكل تابع طريقه...

ولكن! ليت الناس كلهم سعيد! فقد كان سعيد أعقل الناس وأعظمهم حباً وقلباً وقد تعلم منه الكثير...

كانت زوج سعيد من عائلة غنية أحبته وهي طالبة في الجامعة. تخلت عن أهلها لأجل سواد عينيه، وعاشت معه فترة طويلة، ولكنها لم تستطع الاستمرار مع فقره فقد تغيرت، وجاع الحب، فكفرت، وتركته يحتضن فقره، وعادت إلى أهلها.. تحمل قساوة هجرها.. وصبر، لكن صبره تمزق!

يقولون عن الفقر إنه كفر، والحب إنه الموت، وفي ساعة يائسة قتل، وكانت زوجه الضحية! أمسكوا به كفأر نجس ورموه هنا!

في الخارج يشيعون بأن السجن للمجرمين، لسفاكي الدماء، لمهربي الحشيش.. ولكن عبد المتوكل رأى هؤلاء خارج السجن. ورأى السجن غير ذلك.. فقد وجد أهله أناساً طيبين، بسطاء، تتجلى الطهارة في أعماقهم رغم قساوة ملامح وجوههم.. رأى في السجن الحياة فأحبها.. أحب التغيير.. أحب التبديل... في السجن لمس الحرمان وانتفاء العدل والمساواة... ويوم خرج من السجن الكبير - كما يسميه- إلى السجن الصغير كان إنساناً آخر..

ويذكر تماماً يوم خروجه ومدير السجن ينعق في وجهه:

- انتبه وكن عاقلاً.. دعك من كلماتك الفارغة فأية كلمة تتفوه بها ستعيدك إلينا!

وقد شكره يومها على حسن ضيافته وهو يقف على قدميه، وينفض التراب عن بنطاله ويمسح الدم عن شفتيه..

أصبح همه الوحيد بعد خروجه من السجن أن يبحث عن البديل، أن يغير الواقع. ولما كان السجن قد علمه بأنه لن يستطيع ذلك وحده، قادته قدماه إلى تلك الغرف المغلقة، ليخرج منها اليوم إلى غير رجعة، فقد قرفها وسئمها ولم يتعلم منها غير التنطع والثرثرة وحركة الأيدي والأصابع..

كان يجد عقبات فلم يبال بها فالحلم أكبر، أخطاء تتكاثر لم يجدها ذات قيمة.. فكما كان يقول صاحب البطن البدين:

- المهم هو الهدف... الهدف!

ولما تغلغل عبد المتوكل، فهم.. اتضحت الأمور أمام عينيه، أمام عينيه عائشة وأطفاله السبعة.. يقف قليلاً، يتردد في متابعة سيره.. أخذ يهلوس، الهلوسة تنتابه.. يسائل نفسه بصوت عالٍ:

- أين أنا؟ هل تغيرت؟

- لا.. لا.. أنا عبد المتوكل.. إنها الحقيقة.. وما رأيته وما لمسته بيدي كان صحيحاً..

أهل الحارة تجمعوا حوله، يتأملونه، يلقون عليه السلام.

عبد المتوكل مع نفسه:

- ايه يا عبد المتوكل.. تسمع كلام مثل العسل، تشوف أفعال تجنن!

الله.. الله يا زمن، امتى الواحد يشوف اللي يسمعه؟

أهل الحارة ينظرون إليه ما بين مشفق، وضاحك، وخائف، وعبد المتوكل يصرخ:
- لازم يا عبد المتوكل نعمل وما نضيع عمرنا في الحكي...
خطوات عبد المتوكل تتسارع.. إنه يعدو من بين الزحام، يتمتم بكلمات غير مفهومة..
- عاوزين فرن لازم تنضج الظروف أولاً.. فرن...
رجل امتلأ شهامة اتجه نحو الهاتف.. رفع السماعة أدار القرص:
- ألو، مستشفى المجانين... لا حول ولا قوة.....

*****

السجين

يقبع بين جدران أربعة، أذنه في الباب، أهناك أحد؟ يتأمل الحيطان، الزوايا أربع! الزوايا ثلاث! الزوايا تختفي! السقف! لم يعد له وجود! يسمع دبيب أقدام، يركض نحو الباب، أهو رسول؟ ينتظر.. الأقدام تقترب.. ينتظر.. الأقدام تبتعد، تبتعد، يعود كئيباً، يتابع تحرك الجدران..

الساعات تمر ببطء شديد، يتجول بين الجدران، الذكريات حلوة، ليالي الشتاء، أيام الربيع، مياه البحر تتدفق، الشمس الساطعة، الزورق تتقاذفه الأمواج، الموسيقى عذبة... علبة التبغ تنتهي، السجاير نفذت.. يتأمل السماء من كوة صغيرة. السماء كئيبة، الغيوم تحجبها، رذاذ المطر يبلل وجهه، يتنفس بحرقة... لا بد أن يأتوا، الوقت عصراً، سيأتون، لم هذا المكان موحش!؟ ترى أخلت المدينة من الناس! ترى ذاك الضوء البعيد، أهو بيت؟ إذاً لست وحيداً! أأنادي عليهم! ولكن! هل يسمعونني؟ يقترب من الكوة، يصيح، يصرخ... لسانه يفتر... ينادي.. يهمس.. لا أحد يرد.. لا أحد يرد.. ترى ماذا يجري؟

الشارع خال.. يترك الكوة.. يدور بين الجدران... الجدران تحدق به، تحملق فيه، تتحداه، تقترب منه... لا مفر من الصراع..

ينهض بصعوبة، يتجه نحوها، الغرفة تدور، الأرض تنقلب، قدماه إلى الأعلى، رأسه إلى الأسفل، الزاوية تهزأ منه، يقبض عليها، يضغط على عنقها، قوته تنهار، الذكريات تعبر أمام عينيه، أين هم؟! لم تأخروا!؟

أين أنتم أيها الرفاق؟ ماذا أصابكم؟ متى سأخرج من هنا؟

الذكريات تمر... محاولات الهروب كلها فشلت، محاولات الرفاق كلها أخفقت، اليوم سيأتون.. شهور طويلة في هذا الجحر... وحيداً، وحيداً، بعيداً عن البندقية، بعيداً عن الرفاق...

الذكريات تمر بإيقاع رهيب، ترمي ثقلها.. أحرقوا بيته، كتبه الحمراء، الصور المنتشرة على الحيطان، كبلوه بالحديد، الهراوات فوق جسده، فوق رأسه، أدخلوه هذا الجحر. أصابه التقيؤ، يتأمل السقف، الذكريات تعبر، غرفة التحقيق ترقص أمامه، قبو التعذيب يعزف أغنية الموت، يضغط على رأسه بكفيه، الأسلاك الكهربائية تشده إليها، رجل عملاق عار يحمل السوط، يجلده، عيناه تقدح ناراً، فمه يقهقه، يصرخ متألماً، يتأوه، يتلوى من العذاب، صوت مطرقة، المسمار يدخل في إصبعه.. يصيح، يرفع صوته. وجه متطاول يتدحرج أمام عينيه، يصرخ: لن أعترف.. مسمار آخر.. لن أعترف..لن ... جسده يرتعش، يغمى عليه.. الذكريات مؤلمة...

ستة أظافر قلعت، سلت عن اللحم.. أصابه الدوار. الغرفة تدور، الماء يغلي، الماء مثلج، النار... تكلم!... لا أعرف شيئاً... اشرب! كل... من! أصابه الغثيان، السقف يهبط فوق رأسه، يمد ذراعيه، يداه لا تطاوعانه، يصرخ، الذكريات تمثل أمام عينيه، السقف يهبط نحوه، السقف على مسافة قريبة منه، الحياة تدب في يديه، الدم يسري فيهما، ترتفعان، تدفعان السقف نحو الأعلى، السقف عنيد، ثقيل يجب رفعه. الإرهاق، التعب، العرق ينزف، الجدران تقترب، يمشي مترنحاً، الزوايا تتحرك، كل شيء يتحرك، الحياة تدب في قدميه، يركض كالمسعور، من زاوية إلى زاوية، من جدار إلى جدار، نحو اليمين، نحو اليسار، نحو الأعلى، نحو الأسفل... يثبت الحيطان، يثبت الزوايا، يثبت السقف، الحيطان تعود إليه، السقف يهبط، الزوايا تتقدم، يقاوم، يدفع، يشد، يعارك، يصارع... الإعياء تملكه، يصرخ، يطلب المساعدة، يسقط على الأرض، السقف ينطبق عليه، الزوايا تنغلق عليه، الجدران تحيط به.. لا منفذ، لا متنفس...

لم يعد يقوى على الحركة.. لا بد أن يأتي الرفاق، لقد وعدوني.. يتكوم بعيداً عن الكوة.. وميض قوي يضيء الغرفة.. الحياة تدب في جسده، يقفز نحو الكوة.. صوت انفجار..

يبتسم، يضحك، يرقص.. لقد وصلوا.. وصل الرفاق...

طلقات الرصاص يسمعها بوضوح.. تقترب منه... أصوات.. جلبة.. صفارات الإنذار.. صوت يناديه..

يصيح: أنا هنا يا رفاق، أنا هنا...

باب الجحر يفتح... الدموع تختلط بالدماء... العصفور ينطلق.. يطير.

*****

الزفاف

جلس ثائر بسكينة قرب التابوت داخل السيارة التي تقلهم إلى عمان، وقسمات وجهه ترسم حزنا وألماً يعتصرانه، فداخل التابوت جثمان عاطف رفيق صباه، رفيق دراسته، رفيق نضاله، وأهل عاطف هم في الوقت نفسه أهل له.

قال في نفسه:

- ماذا أقول لهم؟ هذا هو ابنكم الشهيد!

لقد خرجا من عمان للدراسة في رومانيا، ولم يكن أهل عاطف يعرفون شيئاً عن وجوده في لبنان، فهو كما يعتقدون يدرس الهندسة الإلكترونية في رومانيا، فالرسائل تصل إليهم بانتظام من هناك، ولم يخطر في بالهم بأن عاطفاً ابنهم يرسلها من لبنان إلى رومانيا، ومن رومانيا كان رفاقه يحولونها إليهم، وفي الوقت نفسه يحولون إليه الرسائل القادمة من الأردن.

السيارة في طريقها نحو الحدود اللبنانية السورية، في مقدمتها جلس السائق ورفيقان آخران، وإلى الخلف منهما، امتد التابوت وثائر قربه، وقد تملكه القلق من أهل عاطف.

كان عاطف في السنة الثالثة في كلية الهندسة في تمشوارا برومانيا، وهو الوحيد من بين إخوته العشرة الذي أصر على متابعة دراسته، كان هو الأمل لهم... هز ثائر رأسه بحزن عميق:

- كيف سيستقبلونني؟ كيف سيستلمون جثمان ابنهم الشهيد؟ كيف سأواجه مأساتهم؟ إنهم سيصرخون في وجهي:

- لم أخفيتم عنا التحاقه بالثورة طوال تلك المدة؟ كان في رومانيا، فكيف ذهب إلى لبنان، ولم يخبرنا؟ كيف التحق بالثورة دون علم منا؟ لم لا تخبرونا؟ لم....

أسند ثائر رأسه إلى مقعد السيارة، وأرخى جسده، فالصور والخواطر تدور في رأسه كالدوامة، عليه أن يواجه الجميع، أشياء كثيرة عليه أن يقولها، أن يقول الحقيقة، لقد قال عاطف وهو يعاني من سكرات الموت:

- إنها الحقيقة يا ثائر، يجب أن تصدقوا، فلست الأول، ولن أكون الأخير!

كم تمنى ثائر أن يطول الطريق، بل تمنى ألا ينتهي أبداً... إلا أن السيارة وعلى الرغم من سيرها الجنائزي البطيء، كانت تخيل إليه بأنها تطير فوق الأرض لتختصر طول المسافة...

جثمان عاطف داخل التابوت يرقد بطمأنينة، لكن، لكن ثائراً يراه أمام عينيه، رغم الغطاء الخشبي، ورغم العلم الذي غطته طبقة رقيقة من التراب...

عندما كانت الطائرات الإسرائيلية تقصف شبريحا، كان عاطف وراء المدفع المضاد للطائرات، يتصدى لها ويمنعها من الانقضاض، كان يقول والفرح يملأ وجهه وجسده:

- كانت أمنيتي أن أقاتل مغتصبي أرضنا.

وقبيل أن يغمض عينينه خاطب ثائراً:

- كان أملي أن أحمل شهادة الاستشهاد، وأمل أهلي أن أحمل شهادة جامعية.

توقفت السيارة، فقطعت عن ثائر الخيوط التي تربطه بحديث خفي في أعماقه مع عاطف.

لقد وصلوا الحدود اللبنانية السورية، وثمة أناس من كل صنف وجنس، والوقت ظهيرة، والأمور معقدة لدى الحدوديين!

لم يتحمل ثائر هذا الانتظار الطويل، لكنه كظم غيظه، فهو أمام معلمه عاطف، فمن عاطف تعلم الهدوء، ومنه تعلم الصبر. مد يده ومررها برفق فوق التابوت وهمس:

- أرأيت يا عاطف، يبقى الفلسطيني وباء يخشونه، فهو لا يعبر الحدود بسهولة كغيره، حتى وإن كان ميتاً، فهم يخافونه!!

تابعت السيارة طريقها في اتجاه دمشق بعد أن ملها الانتظار، وكان ثائر يرى الطريق أمامه كأنما تهرول نحوهم، والوقت يمر على عجل، كأنما هو في سباق مع الزمن.

عندما سيصل سيجد نفسه أمام أهل عاطف، أبيه، أمه، جدته، إخوته العشرة، ولربما العروس التي هيأتها له جدته، سيجد الدموع في أعينهم...

بدأ قلبه يخفق وأخذ جسده يرتعش، لا ، إن عاطفاً علمه الشجاعة، فلن يضطرب أمامهم، سيقف دونما خوف، دونما وجل، سيقول لهم وهو واثق من نفسه وبصدر رحب:

- لكم أن تفتخروا، لقد أصر على الالتحاق بالثورة رغم حاجة تمشوارا إليه...

عندها سيتحلق أهل عاطف حوله وفضولهم يود المزيد، فيتابع:

- لقد استشهد في معركة الشبريحا الصامدة..

عندها سيتقربون منه أكثر، وإن كانت عروسه في الانتظار، ستسأله ودموعها تملأ عينيها، ووقتها لن تكون هناك عينان أجمل منهما:

- كيف كان ذلك؟

عدل ثائر جلسته، فأمامه صورة أهل عاطف يحيطون به، وعروس عاطف تسأله عن استشهاده، فشعر بالكلمات تتدفق على لسانه:

- كان يومها رائعاً، وكان رفاقنا يتصدون لطائرات العدو الإسرائيلي، وعاطف على المدفع، شبريحا كانت البطلة، وعاطف كان البطل.

كان يطارد الطائرات، وهي تحوم حوله، تبحث عن منفذ للانقضاض على الموقع، وخلال لحظات... كانت المأساة... إذ انقضت طائرة وأطلقت صاروخها.. وسكت ثائر، وضم يديه على مقدمة التابوت، وبكى... فأبكى من حوله.

ازداد الصخب والضجة، وارتفعت أصوات السيارات والمزامير، فأيقظت ثائراً من استغراقه مع أهل عاطف...

السيارة تسرع باتجاه طريق درعا، عاد قلبه للخفقان، وشعر بدوار كأنما يريد أن يغيبه عن الوجود، عن المواجهة... فأخفى وجهه بين كفيه، فما يهدئ من روعه إلا وجود جثمان عاطف إلى جانبه...

ولو كان عاطف حياً لما استطاع ثائر أن يظهر قلقه وخوفه أمامه، ولو كان عاطف حياً لقال له:

- لم الاضطراب!؟ إن أهلي يريدون مني شهادة، أو ليس الموت من أجل الوطن شهادة!

مد نظره نحو الطريق، كانت السيارة تتوغل في اتجاه مدينة درعا. وفي الأفق البعيد حيث تلتقي السماء الزرقاء الأرض القاحلة. تطل الرؤوس وتسأله عن عاطف، فيهرب الاطمئنان منه، ويعود القلق والاضطراب، فيبعد نظره، ويتأمل التابوت فيرى عاطفاً نائماً بوقار، فينسى عمان، وتركض تمشوارا، ويأتي الجنوب... جثمان عاطف إلى جانبه يشعره بالراحة والسعادة، كان أخاً لهم، يحنو عليهم، يحبهم ويحبونه، اسمه على كل لسان من يعرفه، ومن لا يعرفه، لقد علمهم الحب، علمهم كيف يكون الإنسان إنساناً، كيف يكون الثائر ثائراً... كلمته كانت الفصل الحاسم في كل شيء، فمنطق عاطف ووعيه وثقافته وإنسانيته، ميزته عن الجميع، فكان المرجع في كل خلاف، وكان المشورة في كل شيء....

ومن ينسى منطقه الرائع، وإيمانه العميق! ألم يقتنع ابن الطبيب اليهودي المتعصب في رومانيا بعدالة قضيتنا، وبحق شعبنا في الحياة، وبحق الثورة في حمل السلاح!

ألم يقل بعدها ذاك اليهودي:

- لولا عاطف، لما تغيرت مفاهيمي، لقد أنار لي طريقاً، بعد أن كنت في كهف مليء بالأوهام والضلالات...

يومها كانوا مجتمعين مع عدد من الطلاب الرومانيين يتناقشون في السياسة، وكان ذاك الروماني اليهودي يدافع عن إسرائيل بحماسة واندفاع، والدم يغلي في عروقه.. وكان عاطف بهدوء ودون انفعالات يحدثه عن إسرائيل والصهيونية، وعن القضية الفلسطينية، وعن الشعب المشرد من أرضه....

أخذت السيارة تقترب من الحدود السورية الأردنية، وأخذت الصور معها تتبعثر، والذكريات تختلط ببعضها، وغدا رأسه خلية نحل لا يسمع إلا طنينها...

بئر عميق شديد الظلمة ينزل فيه، في قاعه صورة عاطف، وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة دافئة ملؤها الحب والحنان، إنسان تمشوارا، إنسان الجنوب...

في الرمثا سيكون أهله في انتظاره، سيستلمونه شهيداً! وممن! من رفيق حياته.

تمتم ثائر بألم عميق موجهاً كلامه لعاطف:

- لم وافقت على مرافقتك إلى عمان؟ لم لم أحسب حساب مواجهة أهلك!

كيف سأواجه آلامهم، كيف سيكون الموقف لحظة وصولك!؟

السيارة اجتازت محطتها الأخيرة، بعد أن طال انتظارها عقب ألف سؤال وسؤال، حتى أنهم كادوا أن يعيدوها من حيث جاءت، فالحدود الأردنية، أعقد على الفلسطينيين من أية حدود، حتى لو كان العابر جثمان شهيد، شهيد عائد إلى أهله لينام نومته الأبدية قرب أعينهم!

وفي الرمثا عشرات السيارات كانت في الانتظار، البلد كلها في الانتظار، لم يتمالك ثائر نفسه، فجسده يرتعش، والجمل تتلعثم بين شفتيه، المواجهة على خطوات منه، والكلمات تطير بعيداً عن لسانه، لم يعد بوسعه نظم الحروف المبعثرة، كأنه لم يتعلم تركيب جملة مفيدة في حياته، ولم يفده طوال وقت السفر في هندسة الكلمات في ذهنه...

توقفت السيارة بين حشد من السيارات، وتدفق الناس إليها، وشعر ثائر كأنما يكاد أن يختنق، فنزل من السيارة، وتوقف عند بابها يستجمع قواه، يستجمع روحه المتلاشية، محاولا إعادة تركيب الكلمات من جديد، إلا أن الكلمات كانت تهرب منه بعيداً، فيطاردها ليلحق بها، ليمسكها، لكنها تهزأ به وبملاحقته.

الوجوه مغطاة بابتسامات مؤلمة، والنسوة يطلقن الأغاريد الحزينة، ولم يستطع ثائر فهم تلك الوجوه، ولم تستطع فراسته استشفاف ما ورائها.. فجمد في مكانه مذهولاً.

اقترب منه والد عاطف وربت على كتفه بحنان، ثم مد رأسه داخل السيارة، وقبل التابوت والدموع تنهمر من عينيه، ثم رفع رأسه، والتفت نحو الحشد محدقاً فيهم واحداً واحداً، ثم قال بنبرة محشرجة:

- أفتخر باستشهاد ابني، هنئوني، فابني حصل على أعظم شهادة!

صعق ثائر، وخارت قواه، ولم يعد يفكر بترتيب الحروف والكلمات، ولا بمطاردة الشارد منها، بينما تابع والد عاطف بلهجة أشد قوة ورصانة وقد امتلأت عيناه بالدموع.. أقيموا الأفراح للعرس، وقولوا للجميع:

- بمزيد من الفخر والاعتزاز، نزف ولدنا الشهيد البطل....

*****

القافلة

أشد ما كان يغيظ قاسماً، ذلك الرتل من السيارات العسكرية، وهي تسير ببطء شديد على الطريق ما بين رام الله والقدس، وقد انزرع الجنود الصهاينة فيها، وأيديهم على البنادق، وعيونهم مشتتة كأنما تبحث عن شيء ما، لا تستطيع أن تبوح باسمه.

كان يخيل إليه بأنها قاطرات تجرها سيارة الجيب الأولى، حيث قبع الضابط الصهيوني ممتشقاً منظاراً، أخفى وجهه وهو يتطلع نحو التلال الممتدة على الطريق.

كانت تلك السيارات المكدسة بالجنود، والمدججة بالسلاح، تحمل الشؤم والخراب، فكم من المرات توقفت على حين فجأة، وانزلق الجنود منها، ليقطعوا الطريق، وليفتشوا المارة بكل وحشية وهمجية. وكم من المرات أخذوا يمشطون المنطقة، بحثاً عن فدائي، يقولون: إنه ألقى قنبلة.

بل إن قاسماً نفسه، استيقظ ذات يوم على ضربات، كادت أن تحطم الباب، فلما فتحه، فوجئ بجنود صهاينة، يبدو عليهم الإرهاق، وقد تملكهم الرعب والذعر، يسألونه فيما إذا رأى أحداً من "المخربين" كما يحلو لهم تسمية الفدائيين، ولما نقبوا البيت شبراً، شبراً، ولم يجدوا شيئاً، اقتادوه إلى التحقيق، وهناك وبعد جهد طويل يئسوا منه رغم تعذيبه الذي اعتاده، فأطلقوا سراحه بكفالة.

كان الجنود يتنفسون الفرح عندما يخرجون من الأحياء والقرى العربية. فالكابوس يخيم عليهم لحظة وصولهم تلك القرى، ولا ينتهي ذاك الكابوس إلا مع خروجهم بعيداً، فخارج المدينة يأخذون راحتهم النفسية، ويستعيدون هدوءهم القلق بعد الهلع والاضطراب.

وعلى الرغم من سيرهم بشكل جماعات، إلا أن الخوف يجعلهم متوتري الأعصاب، إلى درجة أن رمي خشبة تحدث قرقعة، كان كافياً ليفقدهم السيطرة على أعصابهم، فيطلقون النار بهستيريا تدعو للسخرية.

كان قاسم يدرك ذلك تماماً، لذا كانت تلك السيارات تغيظه، فهو لم يذكر مرة أنه ارتعد من دوريات المدينة، بل كم تمنى لقاء فرد منهم ضال عن مجموعته، لينفرد به في زاوية حارة ليقتله، وليأخذ سلاحه... لكن تلك السيارات كانت أكبر من أن ينفرد بها... لذا كان يتحرق لفعل شيء ما تجاهها..

رتل السيارات على الطريق أمام عينيه يسير وئيداً، والجنود في الشاحنات يطلون برؤوسهم كالأغنام، من فوق العوارض الخشبية المحيطة بالشاحنة، وهي لا تدري إلى أين ينتهي طريقها المليء بالقرى العربية، فكل قرية يحيطها ضباب مخيف، وهدوء لا يبشر بالاطمئنان.

كل واحد من الجنود كانت إصبعه على الزناد، وبقية الأصابع تقبض بشدة على أخمص البندقية كأنما تخشى أن تمتد يد خفية إليها، فتختلسها دون أن تحس، فتفقد ما يعطيها بعض الاطمئنان على هذا الطريق.

ولم تكن الأعين تهدأ على منظر ما، فقد كانت تلوب في كل اتجاه، وقد غطت الخوذ الرؤوس وتدلت حوافيها فغطت الحواجب، بينما سال العرق من جوانبها.

كان الجنود يعرفون جغرافية الطريق جيداً، ويعرفون بيت حنينا، وقلنديا، وآرام، والشيخ جراح... ولكن تلك المعرفة لم تمنحهم الاطمئنان، فقد علمتهم الحياة هنا، بأن الجغرافيا في هذه القرى، ليست هي كل شيء..

عينا قاسم كانت آلة تصوير دقيقة، وذاكرته كانت أدق..

القافلة تخرج من رام الله في الساعة... تصل بيت حنينا في الساعة.. وتمر بالقرب من قلنديا في الساعة.. شعفاط، آرام، سمير أميس، الشيخ جراح... في الساعة... في الدقيقة... وتعود في الساعة... والدقيقة...

عدد السيارات.. عدد الجنود في كل شاحنة، الرتب العسكرية، عدد قطع السلاح، نوعية السلاح، الذخيرة، أسهل وأفضل النقاط لمواجهتها...

الرتل يسير كعادته، كطقس وثني يؤديه من الصباح حتى المساء، يمر أمام قاسم وهو كامن يحصي معلوماته ويدققها في كل مرة من مكان جديد.

كان يتخيل تلك القافلة وكأنها سيارة واحدة تئن فوق الأرض، وهي تحمل جنازة، يحيط بها بضعة جنود منكسي الرؤوس، وقد اهترأت ملابسهم، وعلا الغبار وجوههم ورؤوسهم.

تأمل السهل حيث مطار قلنديا أمامه، والتلال من بعيد تقترب من الطريق.

- عند ذاك المفرق سيكمن أحدنا، ويطلق قذيفة الـ ر. ب. ج. فيتوقف الرتل، اثنان منا في الوسط، ومن أعلى التلة سيرمون القذائف والقنابل اليدوية على السيارات، والرابع سيفتح الرشاش على الجنود.

الصورة ارتسمت تماماً في ذهنه، بل تصور نفسه في المعركة وهو يعطي تعليماته، ويوزع المهمات...

لقد أوصل كل معلوماته بدقة متناهية إلى رفاقه، وهو ينتظر تعليماتهم. وبقي يتابع تلك القافلة دون أن يلحظه أحد، أو يشك في أمره أحد.

وجاءه الأمر! ولكنه يطلب منه بأن يكون مع مجموعته على رأس المظاهرة، التي ستخرج من مدرسته في رام الله، للتنديد بسياسة القمع والبطش النازي.

شعر قاسم بشيء من الضيق، فعيناه مشدودتان إلى معركة القافلة، لكنه لم يتردد في تنفيذ الأمر الجديد.. فقد تعلم بأن ذلك نضال لا يقل أهمية عن العملية.

كان على رأس المظاهرة، يرى الشرطة والجنود الصهاينة، وهم ينزلون من الشاحنات العسكرية، كأنما هم أولئك الجنود، وهم ينزلون من القافلة بعد بدء عملية الهجوم...

وللحظات غابت رام الله عن عينيه، إنه على الطريق بين رام الله والقدس، إنه قرب قلنديا، يوجه المجموعة:

- اقذفوهم بالحجارة، أشعلوا إطارات الكاوتشوك... افتحوا النار، ارموا القنابل اليدوية..

وإذ بشيء ما حاد وحار يخزه قرب قلبه، شعر بثقل جسده، فامتدت كفه فوق الوخزة، فأحس بدم حار يسيل من بين أصابعه...

الجنود أمامه يقفزون من سياراتهم، ويطلقون نيران أسلحتهم، وقنابلهم، على المتظاهرين.. كانت الحجارة تتساقط فوق رؤوس الجنود، والإطارات المحروقة ودخانها، يمنعان الجنود من التقدم...

أخذت الأصوات تصل إليه كأنما هي قادمة من بعيد، وشعر بأنه محمول، فجسده يهتز بين الأيدي، وثمة من يهمس في أذنه:

- رفاقنا يقومون بعملية هجومية على قافلة للعدو في قلنديا...

حاول أن يفتح فمه ليتكلم، لكنه لم يستطع، فابتسم، وأغمض عينيه.

*****

جفـرا

من البداية

كان خالد يلعب ويمرح في الحارة، فسدد جندي صهيوني النار عليه، فوقع على الأرض يتخبط بدمه!

ربت القائد الصهيوني على كتف جنديه منتشياً:

- أنت صهيوني حقيقي!!

صعق الفتيان فأسرعوا نحو خالد ليحملوه ويأخذوه، فأخذ الصهاينة يطلقون النار عليهم... فسقط أربعة شهداء، وجرح ثلاثة..

قال الناطق العسكري الصهيوني:

- هاجمت مجموعة من الإرهابيين قوات جيش الدفاع الإسرائيلي بالبنادق والقنابل اليدوية، مما اضطر الجيش إلى أن يدافع عن نفسه بالرد عليهم!

***

ألم وحزن وغضب

خرجت الحارة كلها تبكي، وانهار والداه..

قال جفرا والكلمات تتحشرج في حلقه:

- ما ذنبه؟! عمره ست سنوات.. والآخرون فتيان صغار.. صغار يا عالم!!

***

قرار

أخبر أبو عصام زوجته بعد أن عاد من تشييع جنازة ابنه خالد والفتيان الأربعة، أن دم ابنهما ودم الأولاد لن يذهب هدراً!

قالت الزوجة:

- ماذا ستفعل؟!

لزم الصمت، فانبثقت الآلام من مسامات جلده..

انهمرت دموعها، وهمست متوسلة:
- لا أريد أن أفتقدك، يكفي خالد.. أراه دائماً أمامي يسألني: لم قتلوني، أنا لم أفعل شيئاً!؟
قال أبو عصام بعد أن أطلق زفرة طويلة:
- البركة فيك وفي بقية الأولاد!
ولما استفرد أبو عصام بابنه البكر همس:
- أوصيك بأمك وإخوتك!
ردّ عصام بحدة:
- لا يابا! ابق أنت بجانبهم، هم بحاجة إليك، أنا سأثأر لأخي ولكل الشهداء!

***

فخر

خرج أبو عصام من البيت إلى مكان ألفه، ووقف أمام جفرا:
- نعم، أنا الآن جاهز لتنفيذ العملية!
قال جفرا مازحاً:
- سيسمونك إرهابياً!
قال أبو عصام:
- وجود الصهاينة المستعمرين على أرضنا هو الإرهاب، قتلهم أطفالنا هو الإرهاب، تدمير بيوتنا هو الإرهاب...
قال جفرا:
- إن وصفك المستعمرون بالإرهابي، فيجب أن تفتخر، لأن ذاك يعني أنك رجل وطني وشريف حتى العظم!

***

بديهية

لم يدم الأمر طويلاً، فهو يعرف مستعمرة تل أبيب أكثر ممن فيها، ويعرف ذاك المطعم الذي يرتاده الجنود الصهاينة عند ناصية الشارع المطل على الساحة، والمؤدي إلى البحر..

لم يكن هناك روّاد كثيرون، ففضل أن يتريث، لذا أخذت عيناه تبحث عن أفضل طاولة، ليتمكن من مراقبة الجميع دون أن يثير شك أحد..
وبدأ الجنود بلباسهم المدني يتوافدون على المطعم، وبدأت خيوط من التوتر تجتاحه، وبدأت ضربات قلبه تتسارع.. شريط من الذكريات المرة تداهمه، ابنه خالد، الفتيان، الشهداء.. البيوت المدمرة، الطائرات، الدبابات، أصوات الانفجارات..
الذكريات تعصره، تضغط عليه.. ابنه أمامه، يصرخ: هؤلاء أطلقوا النار عليّ!
الصهاينة يزدادون، ضحكاتهم المجنونة تملأ المكان، ضجيجهم يهيج الأعصاب..
الذكريات تخنقه، إعصارها اقتلعه من مكانه. سنوات مديدة من القهر والحرمان والبؤس والإذلال، ككرة ثلج تكبر وتكبر كلما تسارعت الذكريات المؤلمة، فتدفع الأصابع نحو الحزام!
القيامة قامت! امتلأت المنطقة بسيارات الإسعاف والشرطة والأمن والإطفاء... حوصر شارع المطعم، وتسللت كاميرات المصورين، وفي الأرصفة البعيدة والشرفات تجمع الصهاينة والصفرة تصبغ وجوههم، والهلع والجبن يتراقصان أمام أعينهم، وكأنما ناقوس يطن في عمق كل واحد منهم: غداً سيأتي دورك!
صرخ حاييم:
- ما معنى البقاء إن لم نشعر بالأمن والاستقرار والطمأنينة!!

***

المعادلة

كانت أم عصام تعرف أن هذا سيحدث، لقد غاب عن البيت ثلاثة أيام بلياليها على غير عادته.. وسألت عنه خلالها كثيراً ولم تحظ بإجابة تروي عطشها!
فرح وحزن وألم توحدوا في شراييها وتدفقوا شاقين طريقهم إلى عينيها ووجهها.. زوجها يقف قبالتها يضم خالداً وفتيان الحارة، ووجوههم تتلألأ بشراً وسعادة!

***

بث مباشر على الهواء

عقد زعماء عرب صهاينة مؤتمراً للسلام برعاية بوش وشارون، وتحدثوا عن ضرورة القضاء على إرهاب وعنف الفلسطينيين!!

وفي المؤتمر الصحفي الذي تلا الاجتماعات المغلقة، وبعد أن انتهى الزعماء من النعيق والبعيق.. جاء دور الأسئلة، فسأل صحفي لم يمت ضميره بعد: الإسرائيليون يحتلون فلسطين ويقتلون أهلها، ويدمرون البيوت، ولا يبالون بصغير أو كبير.. بين رجل وامرأة.. ولا تسمون ذلك إرهاباً! الذي يستخدم الطائرات والدبابات والمدفعية ضد المدنيين العزل هو الإرهابي. الفلسطينيون يدافعون عن أنفسهم، عن أطفالهم، فلماذا تسمونه إرهاباً. كل الشرائع والأنظمة في السموات والأرض أعطتهم الحق في الدفاع عن أنفسهم...

تقدم شبحان يرتديان نظارتين سوداوين، وانقطع البث التلفزيوني!!

علل مسؤول إعلامي ما حدث بخلل فني، لكنه أضاف:

- استمعنا إلى جزء من كلام ذاك المندس والمسمى صحفي، وقد تبين أنه كان سكران، نعم كان سكران، وقد أرسل إلى مصح لمعالجته...!

***

محاضرة

قال جفرا أمام حشد من الشباب:

- عندما يأخذ الشراب بسجّان وعي صاحبه، يأخذ اللاوعي حريته، فينطلق ليبوح بالمخبوء من مقموعات مكبوتة!

صحيح قطعوا عنا الدعم والمساعدة، صحيح بأنهم حرسوا الحدود لمنع تسلل الإمدادات، صحيح بأنهم سجدوا تحت أقدام ربهما الأمريكي والصهيوني... ولكن، أن يصفوا دفاعنا عن أنفسنا وكرامتنا وحريتنا بالإرهاب، فهذا أمر مثير للاشمئزاز!!

وتابع:

- إن ما يحدث على أرض فلسطين وترونه بأعينكم من اجتياحات وقتل وتدمير واغتيالات واعتقالات وطرد بقوة السلاح... والأنظمة العربية المتآمرة تتفرج، هي والأنظمة الإسلامية، وأوروبا صاحبة الوجه المراوغ والمخادع والمزيف، وأمريكا هي هي المتصهينة والحاضنة للمستعمر الصهيوني..

هذا الذي ترونه هو ما حدث عام 48، فالتاريخ يعيد نفسه، فمن لم يكن الشاهد على الجريمة الأولى في ذاك الوقت المفعم بالتعتيم والتضليل، فليوقظ ضميره ليشهد!

***

معنى السلام

سأل عصام جفرا: ماذا يعني السلام؟
أجاب: السلام يعني أن يعترفوا للص بشرعية سرقته لأرض ليست لهم!
قال عصام: ولم يعترفون بشيء لا علاقة لهم به!
أجاب: لينالوا رضا سيدهم، وآخرون ليستعيدوا ما لهم!
قال عصام: ونحن، إن لم نعترف له بسرقة أرضنا؟
أجاب: سيستخدم المزيد من الإرهاب والعنف والقتل والتدمير و...
قال عصام: لا، يحق لنا أن ندافع عن أنفسنا وحقوقنا!
قال جفرا: سيسمونك إرهابياً!!

***

أم عصام

خرجت التظاهرة تظللها الأعلام واللافتات، منددة بالاستعمار الصهيوني. كان عصام يحمل علم فلسطين، وبين فترة وأخرى يرفع رأسه ليختطف النظر إليه، فيشعر بالزهو والكبرياء، وحنجرته تردد الهتافات مع الآخرين..
أم عصام كانت تقف على السطح مع جاراتها، وأخذن يهتفن ويزغردن لفلسطين والثورة والحرية..
مرت المظاهرة من الحارة، وحانت مناوبة اختطاف النظرة إلى العلم، فالتقت عيناه عيني أمه، فتأججت مشاعره أكثر، وازداد صوته علواً:
- بالروح بالدم نفديك يا فلسطين..
ولعل أمه ميزت صوته من بين أصوات الآخرين.. دمعت عيناها بدفء وشوق له كأن لم تره منذ زمن بعيد، فأخذت تردد مع النسوة رافعة إصبعيها على امتداد ذراعيها لابنها، لتعبر له عن ثقتها بالمستقبل!

***

ما العمل؟

بعد أن قصفت الأباتشي الحارة واستشهد عدد من الأطفال والنساء والشيوخ، قال عصام لأمه:

- سيبقى الصهاينة النازيون يقتلوننا ويدمرون بيوتنا حتى نستسلم..

قاطعته أمه:

- لن نستسلم، سنبقى ندافع عن أنفسنا، ولنمت، ولكن بكرامة وكبرياء..

قفز عصام نحوها ضاحكاً:

- أحبك يما.. أنت قلتها!

وقبل وجنتيها وضمته إليها بحنان، وعقلها مشوب بشيء ما خفي أخذ ينتشر في جوانحها!

***

حق

حدق عصام طويلاً في جفرا، ثم قال:

- ألن تقبلوني! لست صغيراً، أنا كبير، أنا شاب، رجل، وهل الرجل بشاربيه!!

قال جفرا مدهوشاً:

- ليست القضية هنا، نحن نعرفك شجاعاً منذ استشهاد أخيك وأبيك.. وأنا شخصياً شاهدتك عدة مرات ترجم الصهاينة بالحجارة.. أنت بطل يا عصام.. ولكن أمك وإخوتك بحاجة إليك الآن. الشباب كثيرون وكل منهم يتسابق إلينا مثلك تماماً، كلهم يحب فلسطين، كلهم ينتظر ساعة اختياره لعملية استشهادية..

قاطعه عصام:

- وأنا لي الحق في ذلك مثل الجميع!

ردّ جفرا:

- هو حق لكل إنسان، لن يستطيع أحد أن يسلب منا حقنا في الدفاع عن أنفسنا، حقنا في محاربة المستعمر، حقنا في تحرير وطننا...

وتابع: لكن.. وتوقف هنيهة..

قاطعه عصام:

- لكن ماذا!؟
- ... انتظر حتى يحين الوقت المناسب!

***

حلم

لم تجد محاولات عصام في مواقع عديدة لقبوله.. منهم من قال ما زلت صغيراً، أو أسرتك بحاجة إليك، أو مهماتك الآن في التظاهرات، أو رجم الحجارة.. وكله نضال عظيم..
غضب عصام فتألم وقفل عائداً إلى البيت..
دخل الغرفة وأغلق الباب وراءه.. لاحظت أمه اكتئابه، وقد أقلقها في اليومين الماضيين قلة أكله ونومه، وعزوفه عن الحديث.. حتى ابتسامته الوديعة هجرته..
لم تستطع الصبر أكثر، فدخلت إليه، وصارحته:
- يما عصام، رضاي عليك حبيبي، أخبرني ماذا جرى، لقد تغيرت كثيراً، الألم مرسوم على وجهك، أخبرني يما، أنا أمك..
نظر عصام إليها بأسى:
- يما كلهم يرفض أن أشارك في عملية استشهادية مثل أبي..
اقتربت أمه منه، وأمسكت رأسه بكفيها، وعبرت لحظات سكون أرعدت، فاختلطت دموعه بدموعها!

***

القرار الصعب

قابلت أم عصام جفرا عاتبة بنبرة حادة:
- لماذا ترفضون قبول عصام، إنه ابني، وأنا بكامل قواي العقلية أقول حققوا له ما يريده، لا تظنوه طفلاً، هو بعقله وقلبه رجل راشد بكل معنى الكلمة، إنه ابني وأعرفه، نحن نلد الأطفال رجالاً...
تأملها جفرا طويلاً، فلم يستطع مقاومة الإصرار والعنفوان في قسماتها، فهز رأسه موافقاً..
ارتخى جسد أم عصام وارتمى على الكرسي.. ومن بين عينيها تفجر نبع دموع لم تسل، ولكن تلألأ وجهها بابتسامة غامضة!

*****

قهقهة

ساعدني يا سيدي فأنا لا أدري كيف أتخلص من هذه العادة الملعونة!
لقد أوقعتني في مآزق كثيرة، نعم يا سيدي، لا أستطيع أن أضبط نفسي؛ فأنا أضحك من أعماقي، وأقهقه بصوت عال دونه قرع الطبل، إذا سمعت شيئاً لم أرتح له!
أنا لم أحضر فيلماً كوميدياً أو مسرحية في حياتي، ولم أقرأ قصة مضحكة، بل أنا لم أكن أعرف ما هو الضحك!
حتى أن اسمي هو العباس، وقد عرفت أنه لقب أطلقوه عليّ فلصق بي فصار علماً أعرف به ويعرف بي. فبعد اللجوء أخذوا يسجلون أسماءنا في تجمع للاجئين، وحين جاء دوري كلهم صرخ بصوت جلجل المخيم: إنه العباس!!
يا سيدي إن استمعت إلى بعض زعماء العرب وهم يخطبون أمام الناس الذين على رؤوسهم الطير، تأتني النوبة لكلمة ما قالها الخطيب، مثل.. مثل.. عهد.. أو.. أو.. وعد.. ولا سيما إن أقسم بشرفه أو عروبته أو دينه، فأضحك، وتشتد الحبال الصوتية وتطول فتنفلت متفجرة هستيريا القهقهة، ولا أستطيع ضبطها أو لجمها أو قمعها، رغم تعرضي للضرب أو الركل أو الطرد.. وأدخل في غيبوبة لا أسمع معها أي صوت سوى صدى قرقعة قهقهتي، وأصحو بعدها لأجد نفسي إما في السجن، أو مرمياً في الشارع!
حتى بوش ما إن أسمعه يتحدث عن الحرية أو الديموقراطية أو السلام أو الشرعية الدولية أو الإرهاب.. تأتني هستيرية القهقهة حادة عنيفة أشعر معها بأن أحشائي ستندلق من فمي!!
وذات مرة أغمي علي من الضحك الشديد والحاد وأنا في الباص، فقد كان سائق الباص تعبث أصابعه بإبرة المذياع، وكان كل شيء يسير هادئاً بأمان الله، وفجأة أوقف إبليس أصابع السائق لثوان عند محطة عربية، كانت تنقل كلمة لشارون يتحدث فيها عن إيمانه بالسلام!! وعندما صحوت وجدت نفسي على الرصيف وحيداً متعباً وقد حل الظلام، فلم أتحرك ولم أتزحزح ولم أتنحنح، ونمت حتى الصباح!
حك الطبيب النفساني ذقنه، ثم أمسك بها وقال لي:

- حالتك بسيطة، فقد جاءني ذات مرة مريض علته كعلتك، ولكنه لا يقهقه بل تمتلئ أحشاؤه بالغازات، وتنتفخ وتشتد فلا يسيطر عليها فتخرج ريح عاتية ترافقها رعود متقطعة! اسمع في البداية أقول لك: يجب أن تبتعد عن السياسة!

أجبت:

- يا سيدي أنا لا أتعاطى السياسة أبداً، ما يثير هذه النوبات، أسمعه مصادفة من تلفزيون الجيران، أو من مذياع في الطريق أو في الباص.. أو من خلال أحاديث الآخرين!

حار الطبيب في الأمر وفكر طويلاً فنطق وعيوني ترقب انفتاح فمه إثر انشقاق شفتيه:

- يجب أن تمتنع حتى عن السماع بالمصادفة!!

ظننته يمزح فقلت:

- كيف!؟ قلت لك مصادفة تتم الأمور.. وأينما أذهب تفاجئني، تخترق أذنيّ غصباً عني، فهل يعقل أن أبقى في البيت وأغلق النوافذ والأبواب ولا أخرج أبداً!

تحرك الطبيب باتجاه الكاسيت وأوقفها قائلاً:

- سأسمعك المذياع محطة محطة، لأرى المؤثرات وانعكاساتها.. ردود الفعل.. كيف تأتي النوبة.. تدرج اشتدادها، وما يعقبها من تغيرات!

قلت مستبشراً:

- بدأنا ندخل خانة العلم، توكل على الله!

مرت بعض المحطات عادية، سر الطبيب معها وسررت، وتوقف عند محطة لا أعرف ما هي، فلم تلفت انتباهي ولم أشعر بأن شيئاً ما قد طرأ على حالتي، فما تبثه من غناء لا علاقة له بالقهقهة!

ولكن ملامح الطبيب بدأت تتغير شيئاً فشيئاً، وبدأ وجهه يحمر، وأوداجه تنتفخ.. ثم أخذ يتمتم، يشتم.. فقفز فضولي نحوه فاستعدته ورميته خلف ظهري، ولكنه أفلت مني وسأل الطبيب، رغم محاولتي منعه:

- دكتور ماذا أصابك، أخبرني!

ضرب بقبضته على الطاولة وصرخ بنبرة متوترة:

- أتسمع هذه الأغنية!؟

قلت مرتبكاً:

- نعم، ولكن لا أفهم شيئاً، إنها فرنجية!

صار يتفوه بكلمات لا تليق بمكانة طبيب، فقلت في نفسي لعله جزء من العلاج.. ولكنه ضرب الكاسيت بيده فوقعت على الأرض محطمة، ولكن الصوت استمر. فأسرع إليها يدوسها بقدميه بعصبية أخافتني وأخافت فضولي فرجع إلي يطلب النجاة.. فأخبرت فضولي بأنه يفكك العقدة حتى جذورها، وصمت وصمت فضولي وأخذنا معاً نتأمل الطبيب بقلق حتى هدأ بعد أن تحولت الكاسيت إلى أشلاء متناثرة.. فالتفت إلي وقال زهوه المنتصر شماتة:

- تصور إذاعة عربية... تبث أغاني غربية.. المغني يتغنى بالكيان الصهيوني!!

*****

الساعة الخامسة والعشرون

(1)

في برنامج تلفزيوني لمحطة صهيونية، وقف مقدم برنامج المسابقات للأطفال في الأراضي المحتلة عام 1948، ليعلن عن مسابقته الجديدة أمام مجموعة من الأطفال الفلسطينيين، والأطفال الصهاينة!

قال المذيع:

- لدينا مجموعتان، كل مجموعة تتألف من عشرة أطفال، كل طفل من المجموعة الواحدة يعطينا حرفاً عشوائياً، فإن صادف وشكلت مجموعته كلمة أو جملة لها معنى من الأحرف التي اختارتها المجموعة، يفز الفريق!

الفريق الصهيوني لم يصل إلى أي معنى من الحروف التي اختارها الأطفال بحسب تسلسل ترتيبهم!

وجاء دور فريق الأطفال الفلسطينيين، فقال الأول: تاء، والثاني: حاء ، والثالث: ياء، والرابع: ألف، والخامس: ف، والسادس: لام، والسابع: سين، والثامن: طاء، والتاسع : ياء، والعاشر: نون....

وكان الجميع ينظرون إلى شاشة العرض الكبيرة وهي تلصق الحروف ببعضها.... ذهلوا، احمر وجه المذيع، وأعلن عن فاصل إعلاني!

***

(2)

سألت المعلمة طلابها عن أسماء مدن الكيان الصهيوني، الطلاب الصهاينة كانوا يجيبون.. عصام لم يرفع يده، اقتربت منه المعلمة وقالت:

- ألم تحفظ الدرس؟

قال: نعم!

- إذاً أجب!

قال:

- لا توجد مدن للكيان الصهيوني!

صرخت المعلمة غاضبة:

- حيفا، يافا، صفد، طبريا...

قاطعها الصغير قائلاً:

- هذه مدن فلسطينية، آنستي!

***

(3)

لما يئس صاحبي من حال العرب والمسلمين والمسيحيين، أراد أن يشد رحاله. إلا أن زوجته استوقفته وبكت، وحالت طفلته الصغيرة بينه وبين دربه إلى بلاد الله الواسعة..

قالت الزوجة:

- أتترك الأرض لهم..!؟

شرد طويلاً، وحل رحاله!

***

(4)

حامت الطائرة فوق المخيم، تراكض الناس..

تعالت الأصوات: ستقصف مقر الشرطة.. لا، ستقصف مقر حركة.. جبهة.. منظمة..

وأطلقت الطائرة صواريخها.. فتطايرت أشلاء أطفال الروضة!!

***

(5)

مضت الدبابة تتسكع في شوارع بيت لحم...

قال الراصد:

- لا أجد أي هدف مسلح!

قال قائد الدبابة:

- كل هذه البيوت أهدافنا، اضرب كيفما اتفق!

نظر الراصد صوب مئذنة فأطلق قذيفة نحوها، ثم صوب نحو قبة كنيسة وأطلق قذيفة، ومر طفل صغير، فأطلق عليه قذيفة!

قال المذيع الصهيوني في بيانه:

- لجأت مجموعة من الإرهابيين إلى مئذنة جامع... وإلى قبة كنيسة.. ومنهم من احتمى خلف طفل صغير، وأخذوا يطلقون القذائف على قواتنا مما اضطر قوات جيش الدفاع إلى الرد على مصادر النيران دفاعاً عن حياتها....

***

(6)

أخرجت قوات الاستعمار الصهيوني أم سلطان وأولادها من بيتهم بالعنف، ونسفوه!

ومضوا وهم يضحكون بهستيريا سادية!!

بكت أم سلطان، وهي تنقب بين الركام حتى وجدت خريطة فلسطين وصورة ابنها الشهيد، فحملتهما برفق، ولملمت أطفالها.. ومضت إلى مأواها الجديد بين عيون العشرات الذين احتشدوا لاستضافتها..

***

(7)

كسر إسحق رابين عظام يحيى، وقصف باراك بيتهم بصواريخ الأباتشي، وجرف شارون البيت بالجرافة... فنامت الأسرة في العراء...

حمل أخو يحيى حجراً ورجم صهيونياً...

قالوا: إرهابي..

وقالت أمريكا: مجرم...

والأسرة ما زالت في العراء...

***

(8)

رد عزيز متهكماً:

- أنا من طبريا، ولاجئ في بلاد الغربة، أنتظر يوم العودة، فكيف أعترف بشرعية سرقة بيتي وأرضي!!

***

(9)

سأل المعلم تلاميذه:

- ما الفرق بين النازية والصهاينة؟

استحضر أمجد صورة بيتهم المهدوم، وموت أبيه، واعتقال أخيه.. فصاح:
- لا فرق يا أستاذ! الصهاينة نازيون.. نازيون..
اقترب المعلم من أمجد ونظر إليه بحنان، وقال:
- النازيون أطفال أمام الصهاينة، فهتلر رغم جرائمه لم يقتلع شعباً من أرضه ليسكن مكانهم!!

***

(10)

قال المعلم:
- احذفوا من كتبكم وذاكرتكم، كل ما يخدع المغفلين: اللاسامية، الهولوكست، الأمم المتحدة..
قاطعه الطفل وديع:
- والأنظمة العربية والإسلامية والغربية!!

***

(11)

تعلم مصطفى وعلي الكتابة، فكتب مصطفى على جدار بيت يحتله صهيوني:
كل صهيوني في فلسطين مستعمر!
ثم نظر إلى علي بافتخار.
كان علي قد انتهى من الكتابة:
بوش غبي ومهرج وكذاب ولص..

***

(12)

خرج من المدرسة وهو يقفز سعيداً نحو بيته، كان ملمس قطعة الطبشور في جيبه يمنحه دفئاً محبباً. وقف أمام جدار بيت يحتله صهيوني... أخرج الطبشورة، أخذ يرسم، ويخربش... و هو يغني، ثم وقف، رجع إلى الوراء، تأمل لوحته... علم فلسطين، ابتسم راضياً، وتابع قفزاته مدندناً !!

***

(13)

أطل شمعون برأسه من زاوية الحارة، وسدد بندقيته نحو طفل..
انحنى الطفل إلى الأرض، والتقط حجراً، ورفع يده ليقذف به بكل ما استطاع من قوة نحو الجندي الصهيوني، إلا أنه لم ير أحداً!

***

(14)

انفجرت قنبلة الدخان السام على بعد أمتار من مهند وبدأ الدخان ينتشر..
ركض مهند والتقطها بيده، ورماها نحو الجنود المتسترين وراء آلية، فابتلع الدخان الآلية كلها..

***

(15)

قال موشيه وعيناه تقدحان شرراً، للطفل الذي يسيل الدم من أنفه وفمه:
- لم رجمتني بالحجر يا بن.. ؟
قال الطفل بثقة:
- لأنني لا أمتلك قنبلة!!

***

(16)

صرخ قائد الدورية الصهيونية في وجه أسعد:
- اذهب وإلا سأطلق النار!!
نظر أسعد إليه باستخفاف وقال:
- أنتم الذين يجب أن تذهبوا، هذه أرضنا..
تبارى الجنود فيمن يفرغ خزان رصاصه في رأس الصبي، قبل الآخرين!!

***

(17)

سأل حاييم قائده:
- كيف وضعوا العلم في رأس عمود الكهرباء ذي التوتر العالي!!
لم يكن استغراب القائد بأقل من جنديه، ولكنه رمى رميته:
- لكيلا نستطيع إنزاله!!

ثم فكر، وبعد دقائق، قال بخبث:

- اقصفوا مولدات الكهرباء!!

***

(18)

قال ناحوم:

- الأجيال القادمة ستنسى فلسطين، القضية قضية زمن!

قال المذيع الصهيوني في نشرة الأخبار:

- .. وقد ألقت الشرطة الإسرائيلية القبض على الصبي الفلسطيني الذي قتل الضابط الإسرائيلي بالسكين..

***

(19)

أصر معتصم على الخروج من البيت. قالت أمه:

- يما إخوتك الثلاثة، خرجوا وهم هناك يرجمون الصهاينة بالحجارة!

قال معتصم:

- وأنا أريد أن أشترك معهم.

- يما أنت صغير، وسيأتي دورك.. انتظر!

- أستطيع أن أناولهم الحجارة، وهم يرمونها!

- يما حبيبي ما زلت صغيراً...

حزن معتصم واعتصر ألمه وقال:

- طيب أقف عند باب الدار...

سمحت له أمه بذلك، فانطلق كالسهم نحو الباب وفتحه ووقف أمامه.. مد نظره بعيداً وقال:

- تحيا تحيا فلسطين.. نموت وتحيا فلسطين..

ثلاث أو أربع رصاصات اخترقت جسده!!

***

(20)

لم يسأل أحد حازماً كيف تسلق قبة الصخرة، فقد كانوا ينظرون إلى العلم الفلسطيني وهو يرفرف في أعلاها، بفخر واعتزاز!

***

(21)

تابع محسن كلامه: لما رأوا خريطة فلسطين وقد غطاها علم فلسطين، جن جنونهم، اختطفوها مني ورموني أرضاً، وأخذوا يحطمونها ويطلقون عليها الرصاص بشكل هستيري..

قال فاروق:

- أشد ما يغيظ المستعمر الصهيوني رؤية خريطة فلسطين وقد غطاها علم فلسطين!

ثم أكمل:

- أينما التفت الصهيوني، يجب أن يرى هذه الحقيقة أمامه.. وأن يرى العالم كله هذه الحقيقة.. لنملأ العالم كله بالخريطة الملونة بعلمنا..

***

(22)

قرأ خالد تاريخ فلسطين والعرب والعالم.. وقرأ تاريخ الثورات ضد الظلم والقهر والاستعمار.. وقرأ القوانين والحقوق والشرائع.. ثم قرأ الكتب العسكرية.. وغاص في قراءة جياب وجيفارا.. ثم قرأ بعمق العمليات الفدائية والاستشهادية.. ولما استوعب حقيقة الصراع في الوجود، والمعادلات في القوى، قرر أن يكون قنبلة بشرية!

***

(23)

قال خالد لأمه:

- عندما أكبر سأنتقم لاستشهاد أبي!

ربتت الأم على كتفه ومسدت شعره بحنان، وضمته إليها.. انسلت دمعة منها على وجهه الصغير الناعم..

قالت: لن أقف مكتوفة اليدين حتى تكبر!

***

(24)

لما قتل الصهاينة زوجته وابنتهما الرضيعة. اتخذ قراره، وقال للقائد:

- دوري الآن، وربط الحزام الناسف حول خاصرته!

***

(25)

دخل سعيد المقهى الممتلئ بالصهاينة في مستعمرة تل أبيب، وقف عند أول طاولة، تحلق خمسة صهاينة حولها، كانوا يضحكون ملء أفواههم...

قال أحدهم: لقد قصفت طائراتنا البيوت في غزة وقتلت عشرة أطفال... ها....

قال الثاني: يجب القضاء على كل الفلسطينيين... سحقهم.. إبادتهم كما فعل الأوربيون بالهنود الحمر...

وقال الثالث: يجب قتل نسائهم حتى لا تلد... أطفالهم حتى لا يكبروا..

قال الرابع معقباً: أو يرحلوا إلى البلاد العربية المجاورة...

رد عليه الخامس: لا ! ربما يفكرون بالعودة.. يجب إفناءهم...

لم يستطع سعيد التحمل مد إصبعه نحو الحزام وشده.. فسمع انفجار دوي هائل...

*****

القضية

(1)

قهقه أبو قاسم وقال:

- أتريد أن ترفع شكوى إلى محكمة العدل الدولية لأن الصهاينة سرقوا بيتك!؟

- نعم!

- هؤلاء سرقوا وطناً ولم يكترث العالم!! فما قيمة ما ستفعله أنت!

قال أبو العبد:

- اسمع يا سيدي لو أن كل فلسطيني رفع شكوى إلى محكمة العدل الدولية، وإلى كل المنظمات الحقوقية والإنسانية في العالم، يشكو من سرقة بيته، أرضه، أثاثه.... لأغرقنا العالم في الشكاوى، ولفضحنا الصهاينة بأنهم لصوص، ومجرمون، وقتلة...

قاطعه أبو قاسم:

- معظمهم صهاينة!!

***

(2)

في الوقت الذي كان فيه بوش يلقي خطابه في تصنيف البشرية إلى إرهابيين، و إلى دعاة المحبة والسلام... جاءه خبر أن عصابات شارون نسفت عدة بيوت في الضفة الغربية وقطاع غزة... وقتلت العشرات من الأطفال والنساء والشيوخ...

رفع بوش رأسه وأخذ نفساً عميقاً منتشياً، وتابع بسعادة مفرطة:

- إن شارون هو رجل السلام!

***

(3)

في محاضرة حول الداروينية الاجتماعية، اختلف أقطاب العلماء: من هم الذين في قمة هرم الانتخاب الاجتماعي الداروني: الصهاينة أم الأمريكان.. فحسم الكونغرس والإدارة الأمريكية الأمر بأنهم الصهاينة!!

***

(4)

قال فيدور لابنه إسحق:

- جدنا الأول هو النبي العظيم أبو الآباء إبراهيم...

قال إسحق:

- ولكن نحن أمريكان، وهو آرامي كما تقول التوراة!!

ضحك الأب بخبث ودهاء وقال:

- كل من تصير ديانته اليهودية، يصير من سلالة إبراهيم، وتصير فلسطين وطنه!!

نظر إسحق إليه بسخرية تسللت من أعماق قلبه، فسأله الأب:

- لم تبدو هكذا كالمجنون!؟

قال إسحق:

- إذا دخلت الإسلام يصير جدي محمداً ومكة وطني!!

***

(5)

سأل رافي أمه حنة:

- لم الفلسطينيون يطلقون علينا الرصاص؟

قالت:

- يريدون القضاء علينا!

- ولم؟

- لأنهم يريدون طردنا، وسرقة أرضنا!

نظر الصبي إليها ببلاهة:

- ألم تقولي نحن جئنا من ألمانيا، وطردناهم من طبريا، وبيتنا هذا كان لفلسطيني!!

- نعم هذا صحيح!

- إذاً هم كانوا هنا، ونحن طردناهم وأخذنا بيوتهم!

- وهذا صحيح أيضاً!

تعجب الصبي، ولم يفهم قال:

- إذاً هم يقاتلوننا ليستعيدوا بيوتهم... ونحن اللصوص... !!

قاطعته:

- لا! هي بيوتنا!

- كيف؟

- هم استعمروها!

- متى؟

- منذ آلاف السنين!

- ومتى كانت لنا؟

- لم تكن، ولكن يهوه وعدنا بها!!

قال الصبي، قال لنا الأستاذ:

- التوراة خرافات كلها، والعلم يقول ذلك...

نظرت إليه الأم وهمهمت، ثم قالت بنبرة حادة:

- المهم نحن هنا الآن!

رمقها الصبي بنظرة استخفاف، ثم خرج من الغرفة صافعاً الباب خلفه!

***

(6)

سأل صحفي مبتدئ مسؤولاً أمريكياً:

- مهما تفعل " إسرائيل" من أعمال قتل وتدمير، تقولون: تدافع عن نفسها... وتبررون لها كل شيء، ولكن إن أطلق الفلسطيني رصاصة ليدافع عن نفسه أو كردة فعل، تقولون مجرم، مخرب، إرهابي.... وتقوم الدنيا ضده، ما رأيك بذلك؟!

قال المسؤول:

- أنت ضد السامية!!

***

(7)

سأل الصحفي ناطقاً باسم منظمة الأمم المتحدة:

- أو ليست معاييركم مزدوجة، بين موقفكم من العراق ومن " إسرائيل" !!

قال الناطق:

- لا! العراق يمتلك أسلحة تدمير فتاكة ويشكل خطراً على السلام العالمي، أما إسرائيل فهي دولة مسالمة ولا تمتلك أي سلاح فتاك، وهي تنصاع للقوانين الدولية... ثم هناك ديمقراطية في مجلس الأمن لاتخاذ القرارات...

قال الصحفي:

- ولكن أمريكا تمارس الضغط على بقية الأعضاء لفرض سياستها!

قال الناطق:

- لا، فبريطانيا مع وجهة النظر الأمريكية! والأنظمة الأوروبية تتفهم وجهة النظر الأمريكية..

قال الصحفي:

- إذاً، أين الديمقراطية، طالما الكل سيسير في النهاية وفق الرؤية الأمريكية!

ضحك الناطق قائلاً:

- هذه هي الديموقراطية الحقيقية، فمن ليس معنا فهو ضدنا!!

***

(8)

خرجت تظاهرة في أمريكا عليها لافتة تقول:

من يقول لا لأمريكا هو إرهابي، من يقول: لا للصهاينة هو لا ساميّ، من يقول نعم لأمريكا نعم للصهاينة ، هو الديمقراطي، وهو المحب للسلام والأمن!!

كتب طفل على الجدار: من يقل نعم لأمريكا، نعم للصهاينة، فهو يعني نعم للاستعمار نعم للإجرام، نعم للإرهاب، نعم للسيطرة والنهب، نعم للاعتداء على شعوب العالم الفقيرة،....

***

(9)

سأل مروان منجماً:

- لم الحكومات الغربية منافقة تجاه قضية فلسطين!!

قال المنجم:

- الصهاينة يسيطرون على رأس الأفعى هناك في أمريكا، وفي أوروبا ذيلها.. صحيح بأن الذيل يتحرك بحرية، ولكنه في النهاية ذيل للأفعى لا ينفصل عنها!!

***

(10)

قال أحدهم:

- المسيحية تقول: إن صرت مسيحياً حقاً، تدخل ملكوت السماوات.

- والإسلام يقول: إن صرت مسلماً حقاً، تدخل الجنة.

- واليهودية تقول: إن صرت يهودياً، تصبح فلسطين لك!!

***

(11)

قال المحاضر:

- اليهودي هو المنتمي للديانة اليهودية، كما هو الحال بالنسبة للمسيحي أو المسلم أو البوذي... فاليهود ليسوا شعباً ولا عرقاً، إنما هم المنتمون للديانة اليهودية فقط...

وقف أرئيل وقال:

- لا! القوانين، القواعد، تنطبق على كل شيء.. إلا على اليهود فلهم وحدهم القانون الخاص بهم....

قاطعه المحاضر وقال:

- كيف هذا؟

قال أرئيل:

- نحن فوق القانون، فوق القواعد، فوق البشر.. فنحن لا ينطبق علينا ما ينطبق على الآخرين، الحياة، البشرية... نحن أبناء يهوه وبالتالي، لا نقبل تلك التصنيفات والقواعد!!

قام أحد الحاضرين واستأذن من المحاضر أن يرد على أرئيل، رفض المحاضر وقال:

- هذه محاضرة علمية ، ويجب احترام العقل، ولن ندخل في مهاترات لا علمية.

ثم التفت ووجه كلامه لأرئيل:

- هنا نناقش الأمور بعلم ومنطق وعقلانية، وأعتقد أنه لا مكان لك بيننا!!

***

(12)

سمع عجوز فلسطيني قول أحد الصهاينة: "شارون بالنسبة لإسرائيل مثل تشرشل بالنسبة لبريطانيا خلال حربها ضد النازية".. "حرب إسرائيل على الفلسطينيين مثل حرب أمريكا على الإرهاب"!!

فأخذ يضحك بكل جوارحه، وهو الذي لم يضحك منذ عقود طويلة!!

***

(13)

أخبر بوش شارون عن مرآة عجيبة عنده كلما نظر إلى نفسه فيها، رأى هتلر!!

ضحك شارون وقال: مرآة عادية جداً، كل المرايا عندنا مثلها!!

***

(14)

أجاب حاييم رجل الأمن الذي سأله عن سبب سفره، منفعلاً!

- لا أريد أن أبقى هنا!

- متى ستعود؟

- لن أعود!

- والوطن؟

- اكتشفت هذه الخدعة!

- ماذا تعني؟

- إنه ليس وطننا، أنا روسي، وطني روسيا... كفاكم تهريجاً!

***

(15)

حزم بارليف أمتعته ولعن الساعة التي ترك فيها مدينته بوخارست، ليأتي إلى مدينة القدس..

ولما سئل عن السبب، أجاب دون تردد:

- أجئت لأموت، ومن أجل ماذا، لا يربطني بها أي شيء!؟

***

(16)

لما سئل أبو عصام: لم الصهاينة انتخبوا شارون الهتلري!؟

أجاب: لأن في أعماق كل واحد منهم هتلر، وشارون هو المعبر عن روحهم!

***

(17)

سأل المعلم صلاحاً أين عاش سيدنا إبراهيم؟

قال صلاح:

- لا أعرف!

قال المعلم:

- ألم تحفظ الدرس؟

قال صلاح:

- نعم!

- إذاً أين؟

قال صلاح:

- الكتاب يقول عاش في فلسطين ومات في الخليل، ولكن هذه المعلومات خاطئة!

قال المعلم:

- ومن قال لك ذلك!؟

قال الفتى صلاح بثقة:

- أبي!

قال المعلم متهكماً:

- أهو يفهم أكثر من الطبري وابن خلدون وابن الأثير وعلماء الغرب و ...

قاطعه الصغير، وقال:

- قال أبي: هؤلاء اعتمدوا على التوراة وهي غير صحيحة.. التوراة كاذبة!!

توقف المعلم متردداً، وقال متلعثماً:

- صحيح بأن البعثات التي جاءت لتنقب عن الآثار، لم تجد شيئاً يثبت صحة التوراة... ولكن....

كانت وجوه الطلاب تخفي ابتسامة ماكرة.. فاحتد المعلم وتغيرت قسمات وجهه وبعق في وجه الفتى:

- اجلس.. اجلس...

***

(18)

احتد النقاش فقال غسان:

- مشكلتنا أن الحكام العرب لا يدركون أخطار الصهيونية!!

ضحك مازن وقال:

- إن الحكام العرب، يا عزيزي، يدركون ويعرفون، ولكن مصلحتهم البقاء على الكراسي!!

***

(19)

قال المسؤول: شيخ سعودي حرم الدعاء على اليهود!!

انتفض مسؤول آخر، وقال: وكيف سنحارب إسرائيل!!

***

(20)

قالت فلسطين: من ليس معي فهو مع الشر والإرهاب والاستعمار، فأنا مقياس الحق والخير والعدل والأخلاق!!

صاح من تبقى من الهنود الحمر: نحن معك يا فلسطين!!

*****

مهمة في الجنوب

السيارة تتجه نحو الجنوب. الجبال والوديان في كل مكان. والبيوت متناثرة هنا وهناك تؤنس هذه الرقعة الموحشة. كان خيالي يتجاوز أفق الجبال يفكر بالذين سيجتمع معهم، متى؟ وكيف؟ ترى كيف هم؟ كيف يحيون؟ كيف يتعاملون مع بعضهم بعضاً؟ كيف يعيشون تحت القصف الإسرائيلي دوماً؟

وخيل إلي أن الجبال والوديان لن تنتهي، وصدق ظني، ولكن توقف السيارة الفجائي أنهى ثرثرتي مع نفسي..

- تفضل انزل.. لقد وصلنا..

نزلت من السيارة وأنا أتمطط كقطة بعد نوم عميق. تأملت المكان فلم أجد شيئاً، فوجئت بادئ الأمر، ولكن دهشتي ابتعدت عني عندما تذكرت أنني ذاهب إلى قاعدة مموهة.

تابعت سيري مع مرافقي.. سرت معه في طريق ترابي وعر، كانت المسافة قصيرة، ولكنها كانت عليّ أطول مسافة سرتها.. وأتذكر تماماً بأنني سرت مسافات أطول على شاطئ البحر.. في شوارع مدينتي المضاءة بالأنوار الباهرة، وواجهات المحلات التجارية التي تجبرك بإغرائها على النظر إليها.. لم أذكر أنني تعبت مرة كما تعبت الآن!

أشار إليّ مرافقي المضيف بأنني في المكان المطلوب، وفعلاً أحسست بذلك...

لم أكن أكثر من صحفي هدفه أن يملأ واجهة صحيفته، عن حياة أولئك الذين قفزوا فجأة إلى الصفحات الأولى من الصحف..

- عليك أن تكتب عن هؤلاء لنكسب سبقاً صحفياً جديداً. هكذا قال لي رئيس التحرير...

خيل إليّ أنني في مكان منعزل عن العالم... شعرت بالندم.. تقدم مني شخص ألقى التحية بكل ود واحترام.. وبدأ معي جولتنا..

تعليمات رئيس التحرير واضحة.. قفوا هنا من أجل اللقطة... آه تجمعوا هنا.. ضع البندقية، أبرز المسدس.. ارفع الـ ب 7 جيداً.. ضعوا أكلاً مناسباً من أجل الصورة. اعتنوا بمنظركم، سوف يراكم العالم...

الكل متجاوب بروح طيبة وبسيطة.. أسئلة روتينية.. كل شيء جيد..

شكرتهم وأردت أن أودعهم.. فارتسمت علامات الاستغراب على وجوههم. تقدم مني شاب صغير لا يتجاوز السادسة عشرة: ألا تسألنا عن الهجوم الذي قمنا به على مستعمرة المطلة؟

- آه صحيح، اعذرني لقد نسيت! هيا حدثني..... وبدأ يروي حكاية ثلاثة قاموا بالهجوم على المستعمرة بالقنابل.....

- صغير آخر يعترض طريقي: ألا تسألنا عن المستقبل؟!

- آه! حقاً لك ما تريد أنت الآخر..

- نحن نريد وطننا الذي سرقه هؤلاء، وأشار بيده نحو الجنوب،وسنستعيده حتماً!

- حسناً، حسناً.. أهناك شيء آخر! إلى اللقاء.. وأردت أن ألتفت لأعود، فاستوقفني صوت لم أشعر معه إلا وأنا ممرغ فوق التراب، جانب صخرة متكوماً على نفسي!! وأوراقي في مكان، وآلتي التصويرية في مكان آخر..

كل هذا خلال ثوان.. لم أعد أفهم ما يجري حولي. لقد تحدثت كثيراً في الصحف عن الحروب، ورأيتها في الأفلام.. لم أتغير، لم يتمرغ رأسي في التراب.. لم يحملني أحد ليضعني وراء صخرة! لم أعد أفهم شيئاً!!

ولم أعد أتذكر شيئاً! كيف انتهى الأمر، وكيف عدت!!؟ كل الذي تذكرته تماماً وحفظته عن ظهر قلب بعد أن عاد إليّ هدوئي هو أن الطائرات الإسرائيلية أخذت ترمي القاعدة بالصواريخ، وأن الأرض انشقت عن رشاشات غطت السماء بنيرانها الغزيرة فانسحبت الطائرات باتجاه الجنوب.

وبدأت أستوعب كيف هؤلاء الذين نكسب بهم السبق الصحفي، يهزون أمن الصهاينة بيد، واطمئنان العرب بيدهم الأخرى.

*****

اعترافات عيزرا

في سناك المحطة الرئيسية للأندر جراوند في كامدن تاون كان عيسى يشرب الشاي. المحطة تعج بالركاب في كل الاتجاهات، والأصوات تعلو وتنخفض وتقترب وتبتعد وفق نشاز مقزز. وصلت كريستين في الوقت المحدد وهي تلهث، فجاءها بكأس من الشاي وتحلقا حول طاولة صغيرة في الزاوية.

- أجئت بالصور؟

- نعم. ومدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت ظرفاً وناولته إياه.

فتح الظرف بسرعة وتأمل محتوياته، وقال لها:

- شكراً كريستين، ولكن هل أنت متأكدة من حقيقة الملف؟!

أجابت دون مبالاة:

- لا أدري، كما أخبرتك وجدت الملف في صندوق عتيق مهمل في مستودع المتحف الوطني، وصورته كما طلبت مني.

- هل انتبه لك أحد؟

- لا تهتم! حتى لو انتبه أحد فلا قيمة لذلك، فأنا سكرتيرة المستودع كما تعرف، وأرتب باستمرار وأصنف وأصور وأعدل.. وكل تلك الأمور عادية، فلا شيء سيثير الانتباه!

شكر عيسى كريستين ثانية وتواعدا وافترقا في دهاليز محطات أنفاق القطارات.

وما إن وصل إلى بيته في هامستد هيث حتى أسرع إلى مكتبه وفتح الظرف وأخذ يقرأ بفضول نهم مشوب بالتوتر والقلق!

لم تكن الاعترافات كثيرة، فأعاد قراءتها مرات عدة وبتمهل وروية.

قال في نفسه:

لا بد وأن عيزرا قد اعترف أمام خاصته المقربين جداً بحقيقة تأليفه لمعظم أسفار العهد القديم، ولا بد أن الذين أكملوا تتمة الأسفار يعلمون حقيقة عيزرا وما صنعه من سرقة وتزوير. ولا بد أن أحداً ما قد دوّن اعترافات عيزرا وبقيت مخفية في مكان ما، ولكن كيف وصلت إلى المتحف البريطاني الوطني، ومتى؟ ولم دخلت سباتها في الصندوق وفي الغبار بعيدة عن الأعين!؟

أعاد عيسى قراءتها بصوت يسمعه وبتأن:

قال العالم الاختصاصي في علم الآثار المقارن والأوابد والنصوص القديمة: لقد عثرت على لفائف قديمة جداً في مكان ما، وتعود إلى زمن ما قبل الميلاد. ولما فتحتها وقرأت ما فيها وهو باللغة الفارسية القديمة، هالني ما يبوح به عيزرا مؤلف معظم أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس، فقمت بترجمتها إلى الإنكليزية، عسى أن ينتفع بها المؤمنون المخدوعون بالأسفار. وقد حاولت أن أترجمها بلغة مفهومة ومعاصرة، وقمت بتنسيق النص واستخدام علامات الترقيم، وشرحت بعض الغموض ولكنني وضعته بين قوسين مستخدماً تعبير: ملاحظة من المحقق.

والسفر الأول يتألف من اعترافات كثيرة تلاشت كتاباتها، إلا أنني تمكنت من قراءة وفهم اثني عشر اعترافاً متسلسلين باستثناء الاعتراف الخامس فهو مفقود.

أما السفر الثاني ففيه ثلاثة اعترافات واضحة، أما الرابع فليس فيه سوى: الاعتراف الرابع، ثم قال عيزرا، ولا توجد أية كتابة أخرى.

وهناك أسفار كثيرة أخرى وكلها تحمل رقم السفر وأرقام الاعترافات فقط أما نصوص الاعتراف فهي ممحية.

وعلى كل، إن ما سلم من الاعترافات يكفي لذي عقل واع ليقرر حقيقة عيزرا وكتابه عن يهوه!!

* * *

السفر الأول

الاعتراف الأول:

قال عيزرا: أنا من عبدة أهرمان (أنكرا مينبوما)، اضطهدني عبدة النور أتباع أهورا مزدا، ففررت بجلدي من موتهم المحقق وسحت متخفياً في طول البلاد وعرضها، حتى وصلت إلى بلاد جميلة هادئة، وسكانها بسطاء طيبون حيث رحبوا بي كغريب وقدموا لي العون والمساعدة والضيافة.

فأخذت أجول فيها غرباً وشمالاً وجنوباً آمناً مطمئناً، وراقت لي هذه البلاد، فقررت أن أنشر فيها عبادة إلهي الشيطان إله الظلمة والشر، وقررت أن تكون هذه الأرض الرائعة الممتدة من نهر النيل وحتى نهر الفرات، لي ولأتباعي من عبدة الشيطان العظيم أهرمان.

* * *

الاعتراف الثاني:

قال عيزرا: هناك سبعة ديوات (شياطين: ملاحظة من المحقق) تحوم في فضاء العالم تغوي الناس على ارتكاب الشر وعلى رأس هؤلاء الشياطين الإله أهرمان، أهرمان الذي خلق الظلمة والحر والبرد والفيضانات والعواصف والأعاصير والزلازل والبراكين، وخلق الجريمة والخطيئة والأمراض والرذيلة، وخلق الأفاعي والعقارب والحشرات المؤذية واللواط والسحاق، وكل ما هو من شرور الحياة.

أهرمان الذي له مملكة الظلام والعالم السفلي، وفي مملكته ملايين الشياطين والأتباع يأتمرون بإمرته.

إن عبادته تحقق المنافع للإنسان؛ الحصول على ما يريده بأيسر الطرق من خلال التسلط والهيمنة والقتل والسرقة والنهب والكذب والخداع والغش والظلم والجور.. وكل المفاسد والممنوعات تصير مباحة لعابديه.

إن أهورا مزدا إله الخير والنور يكبلنا بعشرات المحرمات والمحظورات؛ هذا لا يجوز وذاك محرم، ويجب أن تفعل كذا وكذا، ولا نستطيع أن نسرق أو نقتل أو نعتدي على أحد كما جاء في الأبستا الموحى به إلى زرئسترا (زرادشت: ملاحظة من المحقق).

* * *

الاعتراف الثالث:

قال عيزرا: ما أعظمك يا إلهي يا أهرمان، لك السيادة والزعامة والمجد أكثر من إله النور والخير أهورا مزدا، وسيبقى الصراع إلى الأبد بينك وبين إله الخير الذي يريد منعنا من السيطرة والتسلط والنهب والتمتع بالحياة كما نريد ونهوى!

* * *

الاعتراف الرابع:

قال عيزرا: زعموا أن أجدادي الأولين الميديين جاؤوا منذ مئات السنين إلى بلاد فارس (حوالي 1000 سنة قبل الميلاد: ملاحظة من المحقق)، من شواطئ بحر الخزر مارين ببخارى وسمرقند حتى وصلوا إلى إكباتانا (لعلها اليوم همذان: ملاحظة من المحقق)، واستطاع عظيمهم سيخار أن يدمر نينوى مدينة الآشوريين، وامتلكوا فيما بعد آشور وميديا وفارس، تم زالت مملكتهم سريعاً، وسادت فارس عليهم.

وجاء قورش ملك الملوك ووحد قوات ميديا وفارس وصار لديه جيش عظيم لا يقهر، ففتح به البلاد كلها وصارت آشور وبابل وكل الممالك غرب الفرات وحتى البحر له. فاختلط الحابل بالنابل وما عاد أحد يعرف أصله ولا فصله كما أخبرني أبي نقلاً عن جدي!

* * *

الاعتراف السادس:

قال عيزرا: لما وصلت متخفياً إلى نينوى وبابل وجدت أضخم ما وقعت عليه عيناي من كتب في العالم.

وبدأت أفكر وأخطط، وكانت أمامي كتابات أهل هذه البلاد السومرية والبابلية والآشورية والفينيقية والآرامية وبلاد النيل والعرب وغيرهم، وكان علي أن أختار من تلك الكتابات ما يناسب كتاباً أؤلفه بوحي إلهي الشيطان.

ولما كنت متوارياً هارباً كان لا بد من تغيير اسم إلهي، ومن خلط الكتابات لأخرج بكتاب جديد أنسبه لإلهي، ولكن بتسمية جديدة، وفيه أحمل إلهي ما أشتهيه وأحلم به بالاستيلاء على هذه الأرض الممتدة من النهر العظيم النيل إلى الفرات، إنها أحلى أرض شاهدتها في حياتي، فقد جلت في بقاع الأرض كلها، ولم أر أجمل ولا أبهى منها.

وسأجعلها نصيباً لأتباعي إن هم آمنوا بي وبإلهي، بل سأشجعهم بالقول إن الإله يعطيكم هذه الأرض إن آمنتم به. والدين إن لم يرتبط بمنفعة ملموسة لن تلتفت إليه الحثالة.

* * *

الاعتراف السابع:

قال عيزرا: بقيت أياماً وشهوراً وأنا أقرأ كتابات أهل البلاد هذه، وأفكر وأبحث وأختار من الكتابات ما يفيدني في السيطرة على هذه الأرض ونشر عبادة إلهي الشيطان.

وقد أوحى إليّ إلهي الشيطان أهرمان بتسمية جديدة له وهي يهوه فلا أعظم من أن تهوى من يمنحك المنفعة وفعل كل شيء دون حساب، بل يحضك على السرقة والنهب والقتل وفعل القبائح. وكان علي أن أخلق صلة زمنية قديمة بهذه الأرض حتى من قبل أن يولد البشر، وكانت أمامي الكتابات الكثيرة وفيها كل شيء عن الخلق والوجود والإنسان الأول وهناك مئات الحكايات عن الناس والرجال والأنبياء وأسماء كثيرة لا أعرفها ولا أعرف إن كانت موجودة أم لا، وما كان علي سوى الاختيار وإعادة الصياغة وتسلسل الأحداث والأمور.

* * *

الاعتراف الثامن:

قال عيزرا: كان لا بد من خلق جذور لي في هذه البلاد ولمن سيؤمن بي وبإلهي يهوه، وليس أسهل من الكذب والتلفيق والتزوير ولا سيما إن ارتبط الأمر بأرض هي الجنان، وما أسهل أن تجد من اللصوص والعاطلين عن العمل من يسير معك إلى النعيم ودون التحقق من إلهك وما يدعيه.

* * *

الاعتراف التاسع:

قال عيزرا: يهوه خلقته أنا على صورتي، يهوه صنعته من نسيج خيالي، يهوه يحيا بي ولم تعد له كينونة خارج ذاتي، يهوه هو أنا وأنا يهوه، فنحن جسدان اتحدا معاً.

ألبسته ما إليه أطمح وأطمع وأحلم، وصنعت من حولي أتباعاً أغبياء يسيرون كالأغنام، وفق مشيئتي وإرادتي. قد يتذمرون أحياناً ولكن التعامل معهم يستدعي المراوغة، والحنكة في معرفة متى استخدام الشدة ومتى اللين.

فقيادة قطيع من الأوباش تسخره لمآربك يتطلب مهارة وذكاء وخبثاً ودراية. وما كان لي أن أقود القطيع إلى أحلامي لولا أني جعلتها أحلامهم فسال لعابهم واندلقت ألسنتهم صارخين: أتكون هذه الجنات لنا إن آمنا بيهواك، أهو يبيح لنا الفسق والفجور والرذائل كلها وقتل الآخرين والاستيلاء على ممتلكاتهم!؟

ما أروع دينك يا عيزرا وما أعظم إلهك، فلنتمتع بملذات الحياة دون رقيب أو حسيب، لا حياة إلا هنا على الأرض!!

* * *

الاعتراف العاشر:

قال عيزرا: تعاليم يهوه خلقتها لأضع القطيع بين الخوف والرجاء، وبين الرهبة والأمل، وبين العقاب والصفح.

قدت القطيع بسوط يهوه وبرعاية يهوه، ولو لم أفعل ما فعلت وأنا القادر على فعله لكنت أغبى الأغبياء.

وكان لا بد من كتاب كما للآخرين كتب، فللكتاب جلال ومهابة أمام الجهال، ويكفي أن تقول لهم هذا من عند يهوه، فيرضخوا ويطيعوا، وكيف لا وبيده الشر والموت والبراكين والزلازل والأمراض وبرك الدماء.

* * *

الاعتراف الحادي عشر:

قال عيزرا: ثلاثة أمور فقط أردتها من الكتاب وهي: الدعوة للإيمان بأهرمان إله الشياطين، والثانية القول إن أتباعه هم أعظم البشر، والثالثة الادعاء بأن أرض كنعان وهبها لنا إلهنا العظيم أهرمان. وما عدا ذلك لا قيمة له.

فبقية الكتابات تبيح للأتباع فعل كل ما يهواه الشيطان من الشر والرذيلة مع الشعوب الأخرى. ولكن وضعت قوانين صارمة لمنع تداولها بين الأتباع مع بعضهم بعضاً. لأنهم إن ارتكبوها ضد بعضهم سيؤدي ذلك إلى المشاحنات والخلاف والصدام والصراع، والنتيجة ضعضعة الأتباع وتشتتهم وتدميرهم وانتهاء أمرهم. فارتكاب الشر مباح بكل أنواعه مع غير عبدة أهرمان، لأن الجماعة الواحدة إن استباحت فعل الشر مع بعضها فسدت وزالت.

* * *

الاعتراف الثاني عشر:

قال عيزرا: صنعت الكتاب على غرار كتب الآخرين فبدأت من قصة الخلق والتكوين البابلية والطوفان. كما اقتبست من الكتابات الفارسية والهندية لأن كتابي يجب أن يأخذ أهم ما عند الآخرين في نظري لينجح في الخداع والتضليل، وجلب الأتباع الأشرار من كل الشعوب والأمم المختلفة الأصول واللسان واللون والمكان.

* * * *

السفر الثاني

الاعتراف الأول:

قال عيزرا: استطعت بمؤازرة وإلهام إلهي أهرمان أن أسرق وأحور الحكايات، وأرسم الأشخاص كما أردتهم، وحركتهم وأنطقتهم بما أحب وأشتهي وأحلم. وكان توفيق أهرمان لي بكتابة جوهر دينه الثالوث: الإيمان به، الإيمان بأن أتباعه أفضل الناس، والإيمان بالأرض التي سنسرقها.

* * *

الاعتراف الثاني:

قال عيزرا: كل ما في كتاب يهوه كذب ودجل ونفاق، وكل ما جرى على أرض كنعان تلفيق وتزييف وتزوير. ما مر فيها إبراهيم ولا إسحق ولا يعقوب. وما جاءها موسى، ولا دخلها يشوع

ولا عرف أريحا، ولم تجر معارك ولا دماء. وما أقام فيها داود وسليمان أية مملكة، بل لم يعرفاها.
ما كانت هناك مملكة لهما، ولم تكن السامرة ويهوذا إلا من صنع خيالي لأحرض أتباعي أن يفعلوا ما فعل من جعلتهم أجداداً لنا. والشريعة سرقتها من ملك الملوك حمورابي، كما سرقت غيرها من كل شعوب الأرض.
وكل ما فعلته مباح وحلال في ديانة أهرمان.
إن الحياة لمن هو الأقوى والأخبث، فامنحنا القدرة الكافية يا يهوه لنقضي على الأخيار، ولنتمتع باللبن والعسل، وبخيرات الأرض التي تعبوا في زراعتها، وببيوتهم التي هم صنعوها!!
ما أعظم أن تمتلك كل شيء دون أن تتعب في صنعه!

* * *

الاعتراف الثالث:

قال عيزرا: لما انتهيت من كتابة كتاب أهرمان أسميته كتاب يهوه، وبدأت دعوتي له بين السذج والجهلة، فوجدت عناء كبيراً في الدعوة بينهم، لكن لم أجد أي عناء بين ضعاف النفوس والحثالة من المجرمين واللصوص والطامعين والطفيليين وأراذل الناس. وهؤلاء كانوا يجلبون غيرهم بطرق كثيرة، ورغم المحاولات الكثيرة والإغراءات وعبر الأيام والشهور والسنين لم يتعد أتباعي العشرات، ولم أستطع أن أحقق أحلامي وأصابني الجنون وأنا في أواخر عمري من شدة ألمي ويأسي وإخفاقي حتى وصلت إلى فراش الموت، لكن الحمد للشيطان الذي كان سندي ليل نهار، وجعلني نبيه وكاهنه ورسوله إلى جلب العباد الأشرار.
وقد أخبرني ربي أهرمان قائلاً: إن هناك مئات وألوف ألوف السنين ستأتي وكتابك سيبقى الهادي لعبادي.

* * *

الاعتراف الرابع:

قال عيزرا: ...!!

* * *

قرع الهاتف، فوضع عيسى الصور جانباً ورفع السماعة، كانت كريستين:

- لقد اختفى الملف والصندوق ولا أثر لهما في المستودع، ولا أحد من الموظفين أو المستخدمين يعرف عنهما شيئاً!!

*****

انتصارات صهيونية

انتصار (1)

زمجرتِ الجرافةُ وأخذت تبتلع الضحية، انهار البيت من الضربة الأولى مستسلماً.. سجدت اللبِناتُ الطينية تحت أنين سقف التوتياء!

أحاطت بالمكان أربع دبابات وناقلةُ جنود..

نظر أبو سعيد وأم سعيد إلى بيتهما وقد طحنته أقدام الجرافة، وكادت الدموع تنزلق إلا أنهما وضعا حاجزاً من إسمنت بينها وبين ضحكات الجنود الصهاينة..

ارتفعت كفا أبي سعيد ولحقت بهما كفا أم سعيد وأخذا يصفقان!!

***

انتصار (2)

لم تتمكن سيارة الجيب المصفحةِ بالحديد والشبك من عبور الشارع الرئيسي في تل السلطان، فقد انهالت عليها الحجارةُ من كل ناحية، فأخذت تتقهقر بسرعة مضحكة. ولما ابتعدت عن سماء الرشقات توقفت ونزل منها جنديان أسرعا وراء طفل لم يتجاوز السابعة.. أمسكا به وجراه نحو السيارة وربطاه في مقدمتها.. ثم عادت الجيب باتجاه الحجارة لتمرق وهي تتمايل تيهاً وافتخاراً..

توقفت الحجارة كسيحةً، وابتلعت الأرض ما تبقى من أيدي الأطفال.. ومرت السيارة بخيلائها حتى اختفت!!

***

انتصار (3)

تأمل سعيد طائرته الورقية وهي تراقص النسمات العذبة بحرية متألقة بقوس قزح فابتسمت روحه..

وصالت الأباتشي وجالت بصوتها الشنيع وأطلقت صاروخها على الطائرة المعادية وأسقطتها أشلاءَ مبعثرة..

***

انتصار (4)

انفجرت القذيفة الصاروخية في مصحة للمعاقين، فتطايرت نظراتهم مغطية الشمس..

ابتسم رعنون وهاتف القيادة: نفذت المهمة!

***

انتصار (5)

ولولت المرأة الفلسطينية لما رأت ابنها يتخبط بآلامه ودمائه، كما صرخت نسوة المخيم مما ألم ببيوتهن الراكعةِ أمامهن.. سمع المعتصم الاستغاثات فامتطى حصانه مخترقاً الزمن، فحاصرته القوات العربية وقيدته ورمته في ظلمات بئر عميقة..

وابتسم الجنود الصهاينة مسرورين!

***

انتصار (6)

خرج أطفال المدرسة الابتدائية وهم يرددون: فلسطين، فلسطين..

ففاجأهم الجيش الصهيوني الصنديد بالرصاص!!

***

انتصار (7)

صاح أحمد:

- يجب أن نحرر فلسطين كلها!

سخر الغائص في خزيه، وضرب أحمد بكل ما أوتي من قوة..

ابتسم الصهيوني وصفق!

***

انتصار (8)

انهالت الصواريخ فوق المخيم، وتقدمت الدبابات في الحارات تسبقها قذائفها..

وانهزم الصبية وحجارتهم فارين من كل ناحية!!

***

انتصار (9)

راح المستغيث يبحث بين الأنقاض عن أطفاله وزوجه وأمه العجوز..

لم تجده والآخرين ساعاتُ التنقيب العسيرة والمرهقة..

وعادت الطائرات تزف البشرى!!

***

انتصار (10)

انتصف النهار واندلق لسان الشمس من شدة حرها.. ووقفت الجموع مطأطئةَ الرؤوس تنتظر العبور عند الحاجز الصهيوني؛ سقط العجوز أبو محمد ميتاً، وأجهضت أم غالب، وفقد أمجد وعيه وتهاوى كورقة فوق التراب، وانتهى دوام زيادٍ المدرسي وهو يبكي متوسلاً.. و.. و..

نظر جنود الحاجز إلى الجموع التي تموج غضباً وألماً وحزناً بين اللهيب والتراب والعرق والذل والمهانة، وهم يشمخون!!

*****

انهيارات صهيونية

جدعون

حام جدعون فوق مخيم رفح بطائرته الأباتشي، كان الناس في المخيم يتراكضون لائذين بالجدر الإسمنتية..

أين ستنطلق أيها الصاروخ؟

لم يعد جدعون يرى أي تجمع للناس!

جاءته الأوامر لينتظر وليحم ثانية حول المخيم!!

أمه أستير البولونية، قالت له:

اقتل، اقتل كل فلسطيني.. وبقدر ما تقتل يحبك يهوه أكثر!!

وقال إيشوع قائده:

- أطلق صاروخك على أكبر تجمع تراه، لا تهدره أبداً!!

ولكن أين اختفى هؤلاء الناس!؟

قال في نفسه: لا بد من أن أحوم وأحوم كالأبله حتى تظهر الفريسة، ولعلها أطفال، وأنا الذئب.. أنا الوحش.. الضبع..

خاطب قائده في القاعدة:

- لا أرى أحداً، وداني إلى جانبي يغط في نوم عميق، لم ينم ليلة أمس وهو يفكر بأمر ما كما أخبرني!!

قال القائد:

- أيقظه، وعندما تعودان سأقدمه للمحاكمة، وأنت ابحث عن أي هدف جديد تجده مناسباً؛ مدرسة، تجمع سكني، سوق، جامع.. أي تجمع يا غبي!!

غبي، غبي.. ردد جدعون!!

كل يوم قصف.. قصف.. وتنقيب عن هدف جديد.. وإلى متى!؟

وما الفائدة إن كنا نقصف هنا، وهم سيتمكنون من الانتقام منا مباشرة في تل أبيب أو يافا أو أورشليم... فإلى متى!؟

أأنا الغبي أم هم الأغبياء؟! نعم هم الأغبياء، وهم الخنازير أيضاً، لن أكون غبياً بعد اليوم!!

اتصل بالقاعدة صارخاً:

- لن أبحث عن أي هدف، لن أقصف، إنني مستقيل من القذارة.. أبلغوا أمي أن تحتضن يهوه وحدها، وأن تقود الطائرة بدلاً مني لتقصف الأطفال.. سأرجع إلى وطننا، إلى بولونيا، بولونيا تنادينا.. وغداً ستندمون أيها الأغبياء!!

* * *

إيليا

حانت مناوبة إيليا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل في المستعمرة.. أيقظه السرجنت شمعون.. لم يستطع أن يفتح عينيه.. لكزه شمعون بقوة صارخاً:

- قم أيها الجبان!

انتفض مسعوراً وهو يحملق في شمعون!

- أأنا جبان يابن الأرتيست!؟

- ..... !!

نهض إيليا وأمسك برقبة شمعون وضغط، فزعق السرجنت، فالتم العسكر وجاء الضابط يهرول ببيجامته بعد أن استدعته الجلبة ولمّا ينم بعد، وقد سبقته مسباته تلعلع في المهجع، فوجد إيليا يزعق في وجه شمعون من بعيد وقد حال بضعة عساكر بينهما!!

- اعتذر يابن الزاتية.. قل للجميع من هرب في تلك الليلة واختبأ في الخندق.. قل، أخبر الجميع كيف نزف إسحاق حتى الموت وأنت مختبئ لم تجرؤ على الخروج لإنقاذه.. ولما رأى الضابط أمامه أكمل:

كنت نائماً أحلم ببيتنا على ضفة الدانوب، أنعم بالطبيعة والسماء، وكالوحش أيقظني السرجنت الجبان وأضاع حلمي الهادئ.. قاطعه الضابط:

إنه واجبك، فالحراسة مقدسة!

قال إيليا بسخرية:

- أي واجب، وأي مقدس!! قل الذهاب إلى الرعب، الخوف، القلق.. الموت.. الموت من أجل ماذا؟!

بعق الضابط:

- الوطن!

لا يا سيدي! إنه ليس بوطننا، لم تعد تلك الحكايات الخرافية تخدعنا.. أنا وطني هناك على ضفاف الدانوب وليس هنا، أريد أن أحيا براحة، بهدوء، بهدوء.. أتفهم ما أعني!؟

صرخ الضابط:
- إن لم تذهب إلى الحراسة سأرسلك بنفسي إلى السجن أيها الخائن!!
بصق إيليا على الأرض واتجه نحو سريره وحمل العوزي قائلاً:
- سأعود إلى السرير لأستريح، وإن اقترب أحدكم سأطلق عليه النار!

* * *

جاكوب

عندما جاءها خبر موت ابنها جاكوب، ولولت الدكتورة سارة وأخذت تضرب وجهها بكفيها:
- أجئنا هنا لنموت!؟
أعيدوني إلى بلدي، اللعنة على يهوه وعليكم وعلى اللحظة التي جئت فيها إلى هنا.. خدعونا بالوعد الكاذب وأرض الميعاد ودولة داود وكلها أكاذيب وتفاهات عجائز معتوهات...
وانفلت لسان الدكتورة شتماً وهي بروفيسورة علم الآثار والتاريخ في الجامعة العبرية، ناسية مكانتها الاجتماعية أو متناسية، لقد صار الأمر سيان عندها!!
قالوا انهارت من شدة الصدمة والحزن والألم، إنه جاكوب ابنها المدلل، الذي وعدها بالعودة معها إلى ريغا!
وقد بقيت لأيام قلائل صامتة لا تكلم أحداً وهي متشحة بالسواد والكآبة والغضب، ولم يجرؤ أحد على نبس أية كلمة أمامها ولا سيما زوجها الذي كان دائماً يعارض عودتهم إلى وطنهم ريغا، ولكنه الآن انقلب مئة وثمانين درجة!!
فبعد مضي أيام جاءت إليه وهو في الحديقة يرشف القهوة ويتأمل العصافير في السماء، لتبادره قائلة:
- يجب أن نعود إلى ريغا!
نهض نحوها، ولكنها بقيت صارمة، فهمس:
- الأوضاع في ريغا ليست على ما يرام يا عزيزتي، ما رأيك بـ.. !
- يجب أن نعود مهما كانت الأوضاع، إنها وطننا!
وصمتت قليلاً وانزلقت من عينيها الدموع، فتابعت:
هناك نستطيع أن نحيا مطمئنين، أم تريد أن نفقد بقية الأولاد.. أهذه حياة؛ توتر، قلق، اضطراب، رعب، موت... هنا لا يوجد شيء سوى الأكاذيب التي نحوكها لنبرر وجودنا وقتل الآخرين، ثم صرنا نصدق أكاذيبنا التي نحن نطلقها..!

إننا جسم غريب هنا، كلنا غرباء، كل اليهود هنا غرباء، غرباء.. هذه الأرض للفلسطينيين، ولن نستطيع إبادتهم كالهنود الحمر.. نعم لقد نجح الآخرون في أمريكا، ولكننا هنا لن ننجح، الظروف تبدلت!!

صحيح نمتلك صواريخ وطائرات، ولكن هم، كل واحد منهم قنبلة، لا نعرف أبداً متى ستنفجر ولا أين!!

تقدم زوجها منها وربت على كتفها بحنان:

- اهدئي يا عزيزتي، اهدئي.. فلقد تغيرت أفكاري منذ إفلاس الشركة، وقد بدأت بتصفية أمورنا هنا، وخلال بضعة أيام سينتهي كل شيء، كل شيء..

* * *

دينة

أطلت الأم برأسها من البلكون ونادت ابنتها التي وصلت لتوها إلى باب البناية:

- دينة، دينة!!

رفعت دينة رأسها نحو أمها في الطابق الثاني، فرأت أمها يتدلى رأسها من درابزين البلكون وقد غطى شعرها معظم وجهها.. فقالت الأم رفقة:

- لا تنسي، إياك أن تركبي الباصات العامة، وكما نبهتك ابتعدي عن الأسواق والمطاعم والبارات والمسارح والسينمات والساحات والحدائق والشوارع المكتظة بالناس، ونسيت أن أحذرك من اجتناب أي مكان فيه ازدحام و...

قاطعتها دينة والارتباك قد لفها، وجمدها الخوف:

- لم يبق مكان أذهب إليه، لا داعي للذهاب، سأصعد إلى البيت... !

*****

نهاية المجموعة الأولى

المجموعة الثانية:

أحلام وغربان

(مجموعة قصص قصيرة)

جميل خرطبيل

*****

الفهرس:

1- عراقيات.
2- الشيطان يخرج من جلده.
3- الغريبان.
4- صور المصباح.
5- السياسة.
6- السيجارة.
7- صبر أيوب.
8- أحلام وغربان.

* * *

عراقيات

قصص قصيرة جداً

(1)

قبل أن يلفظ عبد الرحمن أنفاسه الأخيرة في رفح زحف بصعوبة تجاه الجدار، غط إصبعه في دمه، وكتب على الجدار:

نحن معك يا شعب العراق!

* * *

(2)

فتح عبد المعين التلفزيون، فرأى مسيرة شعبية في بغداد والمذيع يقول: أين أنتم أيها الزعماء العرب، الضمير العربي يناديكم، العروبة تستصرخ رجولتكم وإباءكم...

أحس عبد المعين بغصة تأخذ بروحه، فقال:

- لا تتعب نفسك يا أخي، ناديناهم قبلك أن يساعدونا، أن يمدونا بالسلاح.. ولكنهم أقاموا العلاقات مع الصهاينة، ولم يلتفتوا إلينا!!

* * *

(3)

استمع عبد الله إلى نشيد "والله زمان يا سلاحي..."، من المذياع، فدمعت عيناه، وتكوم فوق الكنبة، تقتله الذكريات.. وتابع المذياع أناشيده.. "بغداد يا قلعة الصمود..."، فانهمرت دموعه وصرخ: لا، لا لهتلر العصر..

وخرج إلى الحارة، وهو يصرخ لا، لا لهتلر العصر.. نحن معاك يا بغداد..

مشى معه اثنان يرددان ما يقوله.. انضم ثالث.. خامس.. عشرة.. عشرون.. ستون.. مئة..

صاروا تظاهرة كبيرة.. حملوا الحجارة.. توجهوا نحو السفارة الأمريكية..

* * *

(4)

تقدمت ميسون، بعباءتها السوداء، نحو سيارة الجنود الأمريكية. وما إن وصلت قربها، حتى قفز الـ ر. ب. ج من عباءتها، وانطلقت قذيفة!

* * *

(5)

وقف علي شامخاً قابضاً بيديه على بندقيته العتيقة.. نظر الفلاحون إليه، تلتمع عيونهم ألقاً وفرحاً ودهشة.. ومن خلفه سجدت الأباتشي جثة هامدة!

* * *

(6)

رفعوا الرايات البيضاء معلنين الاستسلام.. قال القائد الأمريكي:

- رائع! هذا ما كنا ننتظره، تقدموا..

تقدم المستسلمون ببطء وحذر.. ولما صاروا على مقربة من الأمريكيين، أطلت بنادقهم، وأخذوا يطلقون النار!

* * *

(7)

أخذ بوب ينتحب أمام الكاميرا.. قال:

- خدعونا، قالوا نحن ذاهبون إلى نزهة بين دجلة والفرات.. وقالوا: أهل العراق سيستقبلونكم بالورود..

وقال.. وبكى وأبكى من حوله، وانهمرت دموعه كطفل صغير!

* * *

(8)

عندما استمعت الفلاحة العراقية أم أحمد إلى بيان مؤتمر وزراء الخارجية العرب ضحكت.. ثم بكت.. فقال أبو أحمد:

- اعتبريه بياناً من دولة أجنبية تستنكر العدوان علينا!

قالت أم أحمد:

- واه، أليسوا عرباً!

* * *

(9)

في الوقت الذي كان المهووس الأمريكي يقول مخاطباً العراقيين، والخبث يتراقص في وجهه وعينيه:

- جئنا لنحقق لكم الحياة الكريمة، والحرية والديمقراطية..

كانت الصواريخ الذكية جداً، والقنابل الذكية جداً، تمطر فوق رؤوس الشعب في بصرة وبغداد والموصل.. فنبتت أشلاء وجثث أطفال وأجساد متفحمة..!

* * *

(10)

طائرات أمريكا وبريطانيا تقصف الشعب العراقي، وطائرات الصهاينة تقصف الشعب الفلسطيني.. والهدف واحد:

القضاء على الإرهاب، وتحقيق الحرية والديمقراطية والمحبة والسلام!!

سخر الهنود الحمر، واليابانيون، والفيتناميون، والأفغان، والصوماليون، واللبنانيون، و.. و..!!

* * *

(11)

قال المشعوذ في البيت الأسود:

- انظروا كيف يقاتلون جيشنا المسالم الوديع والرقيق، بوحشية، ألم أقل لكم: إنهم وحوش!

صاروخ زنته طن وهو في طريقه إلى حي شعبي، وقف قبيل أن ينفجر وخاطب الناس بكل رقة وعذوبة:

- أحبائي الشعب العراقي، أيها الأطفال والعجائز والنساء، سأسقط الآن بينكم لأحتضنكم، فأنا مشتاق لكم، وسترون أضواء رائعة، وستستمعون إلى صوت موسيقى الروك الخلابة.. ولن تمر سوى أجزاء من الثانية حتى ينتهي العرض الإنساني!!

بصق مصطفى وكسر المذياع، ولحق بمجموعته إلى السوق، ليساعد في نقل المصابين والشهداء!

* * *

(12)

حزن المهووس من عرض صور للأسرى الأمريكان وزعق:

- إنه انتهاك لمعاهدات جنيف..

سمع طفل عراقي شوهته قنبلة عنقودية، ذاك الكلام، فجاءه التقيؤ!

* * *

(13)

في الوقت الذي فيه أسرع الشباب إلى نجدة خالد، وجدوه مستشهداً على أبواب أم قصر، ورأوا الابتسامة تعلو وجهه، وسبابته والوسطى تشكلان الرقم سبعة!

* * *

(14)

ضحكت العصابة حتى الثمالة بعد أن شاهدت شوارع العالم وهي تندد بالعدوان، مطالبة برحيل بوش وبلير ليرتاح العالم من الإرهاب والشر.. وتابع التلفزيون فعرض تظاهرات في نيويورك.. فقال بوش وهو يترنح ورائحة النفط تفوح من فمه:

- أغبياء لا يميزون بين الخير والشر، الخير أن نمتلك النفط، والشر أن نبقى بعيدين عنه.. الخير أن تبقى إسرائيل هي الأقوى.. والشر أن تمتلك دولة معادية لها القوة.. ثم همهم ورفع سماعة التليفون:

- مزيداً من الصواريخ فوق العراق كل العراق عدا منشآت النفط.. إياكم، الآبار هي الخير هي الخير..!!

* * *

(15)

بكى المسؤول الكويتي الحقود، ورفع عقيرته:

- ماذا فعلنا ليطلق العراق علينا الصواريخ، فلير العالم العربي كيف يعتدي العراق علينا!؟

قالت أم محسن وهي تبصق في وجهه:

- يا ... من أرضكم ينطلق الغزاة والعدوان، حولتم أرضكم إلى مستعمرة للجيوش التترية، ومثلكم قطر والبحرين.. والخليج جعلتموه ماخوراً للعصابات والقتلة... ألا يكفيكم هذا!!

* * *

(16)

لم يطل الأمر فقد ظهرت الدبابة البريطانية، فقفز إليها عبد الجبار من وراء الجدار، وصرخ:

- الله أكبر.. وفجّر فيها نفسه!

* * *

(17)

بعث الحاج أبو قاسم برسالة من سريره في المشفى إلى المعتوه صاحب البيت الأسود، جاء فيها:

- شكراً لهداياك لشعب العراق، شكراً لإرسالك الدعم والمساعدات الإنسانية لنا، فها هي تهبط علينا من السماء لتسقط في السوق، فوق البيوت الآمنة..

حقاً أنتم غيورون على شعب العراق، كغيرتكم على الهنود الحمر، وهيروشيما وناغازاكي، وفيتنام وأفغانستان، وفلسطين و.. و..!!

* * *

(18)

خجل سيمون من أن يعترف أمام قائد وحدته العسكرية.. ولكن القائد أصر بحزم على معرفة الحقيقة..

قال سيمون والاحمرار يعلو وجهه:

- لم يكونوا عسكريين يا سيدي، هم مجموعة من الأهالي وتقودهم امرأة.. واجهونا بالبنادق، ونحن مدججون بالسلاح..

اصطكت أسنان القائد، وضرب الطاولة بعنف، وصرخ في وجه مساعده:

- مايك، أرسل بياناً للإعلام أخبرهم فيه، بأن الجيش العراقي يتنكر بزي مدني ونسائي ليخدع قواتنا.. وقد ألقينا القبض على امرأة، واعترفت بأنها رجل عسكري..!!

* * *

(19)

زغردت أم العبد عندما جاءها خبر استشهاد ابنها..

ظنوا أنها أصيبت بمس، نتيجة الصدمة!

تلألأت عيناها بدموع حزينة، قالت:

- هنا، على أرضنا، استشهد أولاد الخنساء الأربعة..

*****

الشيطان يخرج من جلده

قعد الشيطان محتبياً في ظل شجرةٍ يابسةٍ منفردة عند جبل معزول يائساً يندب حظه، فحياته صارت جحيماً لا يطاق!

العار يركبه، والذل والخزي والإخفاق يرافقونه أينما توجه، لم يعد أحد بحاجة إلى خدماته الصبيانية كما قالوا له، والأنكى من ذلك صاروا يسخرون منه، حتى ابتلعه الإحباط!!

هو والشر توءمان ولدا معاً، ولكن توءمه توسل إليه أن يحترم نفسه وأن يتقاعد لأنه لا مكان له في سوق المنافسة، ولكن الشيطان أبى وعانده واستكبر، مما اضطر توءمه إلى أن يفارقه ويتخلى عنه بعد أن وصمه بالبله والحمق في مهنته!!

ومن إخفاق إلى إخفاق ومن سقوط إلى سقوط، وبعد طول معاناة وتمزق وضياع وانهيار، أدرك الشيطان أخيراً الحقيقة المرّة!

لقد بكى بكاء لم تعرفه أية ثكلى، ومرغ رأسه وجسده بالتراب وتعفر حتى نزف الدم من جسمه.. فصرخ مكلوماً معترفاً مستسلماً:

- لا أستطيع متابعة مهنتي، رسالتي، جاء من يتفوق في علومه على علمي الغزير، وبات علمي أضحوكة أمام عبقريتهم اللامحدودة، لقد تجاوزوني وغدوت متخلفاً من العصور الحجرية!!

أين أنا أمام أساطين الشر وعمالقته، وأين عقلي الضامر أمام عقولهم المبدعة، بل تلافيف مخي تقل ملايين المرات عن تلافيف أمخاخ أولئك الجهابذة!!

أين أتوارى؟ أين أختفي من شماتة الآخرين؟ ماذا سيقول جدي الأكبر وقد أخفقت في تحقيق رسالتنا الأبدية، وأضعت جهد عشيرتنا عبر القرون الطويلة في اكتساب شرف تحطيم حلم الإنسان في الحق والخير والكمال، والسعادة والاطمئنان والسلام والأمن والراحة..!؟

ماذا سيقول جدي وقد فاز بذلك الشرف الرفيع العم سام وديفيد!!

ما من شيء أفعله بوجودهما، لقد سيطرا على السوق، وبضاعتي كسدت أمام بضاعتيهما اللتين هما الأحدث والأسوأ والأكبر والأرهب والأفظع والأكثر شراً وعنفاً... بل بضاعتي صارت خيراً أمام عبقريتيهما الشريرتين!!

لقد احتلتا مكانتي بجدارة وفي وضح النهار، ولم يبق لي أي عمل، فلا زبون يقصدني وبضاعتي كاسدة ومهترئة، وشري كله وشر أجدادي الآباء الأوائل لا يساوي نقيراً أمام اللذين احتكرا مهنتنا وحدهما، تاركين بعضاً منها لشركائهما، ودون أي اهتمام بمكانتي وتاريخي العريق!

اجترته الكآبة والحيرة والغم والألم فصار عاجزاً عن أن يفكر في حل مشرف له ولمهنته، ولا يقدر أن يصون تراث آبائه وأجداده.. وأعلن إفلاسه ودونيته أمام العملاقتين المتألقتين بالشر والمكر والإرهاب والعدوان والسيطرة والنهب... كما اعترف بعجزه عن امتلاك المؤهلات لمنافسة علومهما الشريرة ودرايتهما وخبثهما ودهائهما، فماذا تبقى له!؟

أخذ يضرب رأسه بالشجرة حتى نفر الدم منه وهو يزعق:

- أريد أن أنتحر، أن أموت، أن أتخلص من عاري وحياتي، ما أصعب ألا أكون شيئاً!!

ولكنه كان يعلم علم اليقين بأنه لن يموت، لذلك اتكأ إلى الشجرة وأخذ يفكر باعتزال عالم البشر في غياهب الصحراء أو الغابات أو الجبال الجرد أو أعماق البحار والمحيطات أو في الفضاء اللامتناهي، ولكن قدر وجوده مقيد بوجود البشر وعلى الأرض، ففكر بالرحيل ولكن، إلى أين يرحل، ومنافساه يمدان أصابعهما إلى كل أنحاء العالم!

وعاد للنحيب وهو مطأطئ الرأس.. وبألم وانكسار تنهد هامساً:

- ماذا سأفعل؟

وهذا السؤال قض مضجعه وقصم ظهره، فخاطب ذله:

- يخطئ من يظن أنني غبي أو متقاعس أو متخلف وأنني استسلمت بسهولة؟ أنا لجوج ولم أستسلم بسهولة. عندما بدأت المنافسة طورت نفسي وعصرنت أساليبي بعد كد وكدح ليل نهار، وبذلت جهوداً جبارة ومضنية حمدتني عليها قبيلتي والعشيرة كلها، ولكن حظي سيئ، فما إن أجتاز مرحلة تقنية في مهنتي حتى أكتشف أن منافسيّ تجاوزاها بمراحل إلى ذروات وذروات، فأكد وأكدح وأجتهد وأجد من جديد لأصل إلى ما وصل إليه المنافسان، وما إن أصل إليهما وأنا منهوك القوى حتى يكونا قد قفزا قفزات جديدة في هرم الشر المتصاعد، حتى أعيتني الحيلة وأنهكتني المتابعة وانقطعت أنفاسي فسقطت لا أقوى على الحركة.

ولملمت أنفاسي الأخيرة فقرعت الأبواب كلها ولكنها أغلقت في وجهي، حتى اضطررت، وأنا المكسور الخاطر والمجروح الفؤاد، إلى الذهاب لمنافسيّ في وكرهما وطرقت بابهما

ولم يكترثا لي، ولكنني عندما ألححت في الاستجداء فتحا لي الباب وخاطباني بغطرسة وعنجهية:

- ها! ماذا عندك، هات، أسمعنا، أرنا!؟

ولما دخلت وأنا أضطرب لاهثاً، استعرضت أمامهما كل فنوني المبتكرة والتي حسبتها - أنا المسكين- بأنها ستملأ عيونهما وسأستعيد مكانتي واعتباري المفقود، إلا أنني بعد أن انتهيت أخذاني إلى غرفة العرض لأشاهد بأم عيني وأسمع ما عندهما من أفانين! حروب أشعلاها وجرائم ومجازر بدءاً بملايين الهنود الحمر، ومروراً بدير ياسين وتشريد الشعب الفلسطيني، وغير ذلك مما لا يحصى.. وفي كل مكان وزمان كهيروشيما وناغازاكي، وفيتنام، وفلسطين، ولبنان، وأفغانستان، والعراق.. والتدمير والقصف والاعتداءات على الشعوب ونهب ثروات الآخرين والمؤامرات والتسلط والهيمنة والكذب والدجل والسجون والتعذيب.. وجثث الأطفال والشيوخ والنساء المبعثرة هنا وهناك وأنهار الدم...

شاب شعري واصفر وجهي وأصابني الغثيان وكدت أن أتقيأ، وأن يغمى عليّ، لكنني تماسكت قدر الإمكان حرصاً على البقية الباقية من مكانتي أمام نفسي، وانكمشت على ذاتي وجسمي يرتجف، وترتعش كل عظمة فيّ وكل شريان لهول ما سمعت ورأيت على شاشة العرض التي تبوأت نصف الجدار، ولم أكن على علم بمعظمها فأيقنت بقزميتي أمام عملقتهما، وبغبائي أمام عبقريتهما وألمعيتهما، فأخذت أستنجد بصوت مبحوح: كفى، كفى، كفى أرجوكم، لم أعد أستطيع التحمل!!

فهزئا مني ورفساني على مؤخرتي فغدوت خارج الباب والشتائم تركلني:

- أرأيت أيها الغر المعتوه سذاجتك، لا ترنا وجهك بعد اليوم!

وصفقا الباب بعنف!

كم شعرت بالمهانة والذل والصغر فقد داسا كرامتي وكبريائي وتحطمت عنجهيتي، وفقدت كل أسلحتي بعد أن رأيت حقيقتي كملاك بقلب طفل بريء أمامهما واقتنعت بأن عقلي لا يوازي عقل دودة!!

وفي الوقت الذي كان فيه الشيطان يلعق جرح كرامته المهدورة، وخوفه مما رأى وسمع بدأ يبحث، بعد أن استعاد شيئاً من توازنه، عن رزقه في درجات أدنى بين صفوف القادة والأباطرة والقياصرة والملوك والسلاطين والأمراء والعسكر والأمن والأغنياء والمشعوذين واللصوص والمجرمين والعصابات.. وبقي يهبط في هرم الشر حتى الدرك الأسفل درجة

درجة عسى أن يجد أحداً، وتاه في المدن الكبيرة والصغيرة والقرى، وتسكع في الطرقات والشوارع والحارات والدروب دون جدوى فكلهم نهره وطرده... وسافر من الشرق وإلى الغرب ومن الشمال وإلى الجنوب، ولم يجد من يحتاجه لا كمستشار ولا كخبير ولا كمهني من الدرجات المتدنية، بل لم يلتفت إليه أحد ولو من باب الشفقة أو التقدير لماضيه العريق، فعاد منكسراً مهزوماً وقد اقتنع بأنه لا خبز له في العالم المعاصر!!

وتساءل وهو المكلوم والمجروح بماذا أوسوس!؟ والجرائم والسرقات والرشاوى والاعتداءات والاغتصاب والكذب والخداع والظلم والقهر والقمع والاستبداد و.. وكل ذلك من إنتاج بشري وعليه بصماته المسجلة وختمه الذي لا يمحى ولا يزور ولا يقلد.. وعبقرية العم سام وديفيد كل يوم تتفتق بإبداعاتهما المبتكرة في عالمهما الشرير. وأنى له أن تخطر في باله هو أو أبوه أو جده ما يسمى بالقنابل النووية والهدروجينية والفيروسية والكيماوية... والأسلحة الفتاكة والمخيفة في البر والبحر والجو... كما لم تخطر في باله لا هو ولا أجداده، إزاحة شعب عن أرضه وبيوته وإحلال لصوص غرباء مكانهم...!!

وحتى في عالم الأطفال لم يجد سوقاً له، فهناك من سبقه وتجاوزه من العصابات والتجار والمهربين والمستغلين والمفسدين...!

ورغم فقدانه لكل امتيازاته وفوق كل آلامه تلك، ما زال هناك من يشتمه ويحمله وزر ما يحدث، وكأنما هو ما زال على رأس عمله، ولم يدر كثير بعد بأنه البريء والعاجز عن صنع تلك الأهوال والفظائع!!

لذلك ما إن يسمع بشرياً يلعنه ويحمله مسؤولية جريمة ارتكبها حتى يصرخ كالمجنون - وهو الصادق تماماً لأنه لا يقبل أن ينسب لنفسه أعمالاً لم يكن وراءها، ولأن له كرامته وكبرياءه المهني - :

- أنا بريء مما يدعي، أنا لا أعرفه، أنا لم أره في حياتي، بل لم يخطر في بالي ولا بال أجدادي فعل ما فعله! لم هذا الظلم وهذا الإجحاف بحقي في الوقت الذي أعاني فيه من البطالة، لم لا يتحمل البشر وزر أعمالهم، لم يسقطون عليّ مجداً لم أصنعه ولم أكن الهادي له، لم الأصابع تشير إليّ في كل مصيبة رائعة أو كارثة مفرحة أو مأساة سعيدة.. وكأنني الشرير الأول والأخير وهم يرون الحقائق أمام أعينهم ويعرفون الفاعل البشري تماماً.. وكنت أتمنى أن تكون لي يد فيها، ولكنني لا أنتحل شرفاً للآخرين، ولا أسرق جهد الآخرين، فلم التزوير والكذب والغش والتدليس والافتراء!!؟

صار الأشرار كلهم يختبئون خلف اسمي، لقد شوّهوا سمعتي، صحيح بأنها سيئة ومشوهة في الأساس والأصل والتكوين والطبيعة، ولكنني لم أرتكب تلك الأعمال الخالدة في وحشيتها وفظاعتها ولم أكن الموجه لها وهذا ما يؤلمني ويقطعني ويقتلني، ولست بذاك الحجم الذي يتحدثون فيه عني، ولا أملك تلك الحنكة والذكاء!

لم لا يمدحون أنفسهم مفتخرين بعبقريتهم المتوقدة أبداً، بدلاً من طعني بالسكاكين باستمرار، ارحموا قلبي الملتاع المحطم وروحي المنهارة، لقد فقدت طاقاتي كلها وقدراتي!

انطفأ بريق الشيطان ولمعانه وتوهجه، وغادرته مهارته في الإغواء إلى غيره، وصار يائساً وكتلة من الهم والغم والكرب والحزن، وتمحور تفكيره حول الطريقة التي تسعفه في الخروج من عالم البشر رغم معرفته بأنه سيخرج دون تعويض، ودون مكافأة ودون أية ذكرى تمجده رغم تاريخه الحافل!

وقد ساقته أحزانه وآلامه وبؤسه إلى تلك الشجرة اليابسة النائية عن البشر عند الجبل الضائع في غياهب البراري.. ليعفر جسمه بالتراب ويلطم خديه بشراسة ويضرب رأسه بجذع الشجرة ودون أن يراه أحد..

وأجهش في البكاء:

- ويحك أيها الشيطان من يرثي لحالك، الكل يستصغرك ويهزأ بك، لقد ضيعوك وضعت وضاعت مكانتك وهيبتك ومهنتك.. فماذا تبقى لك!؟ ما أصعب أن يشعر الكائن بأنه لا قيمة له وبأنه شيء زائد، ما أصعب أن يتجاهلك الآخرون ويستغنوا عنك وعن خدماتك.. وجودي عبث لا معنى له ولا مبرر ولا مسوغ... القضية قضية وجود وكينونة، أن أكون أو لا أكون!!

أين التحدي الذي حمله آبائي وأجدادي وزرعوه في قلبي وعقلي وروحي منذ أن دببت على البسيطة، أين الأحلام والطموحات!؟

كل شيء راح هباء تذروه الرياح!!

ليتك يا جدي الأكبر معي لتخفف عني مرّ العذاب، لا، لا يا جدي! لو كنت معي لخرجت من جلدك الشيطاني وغيرت كينونتك، فأنت نفسك والعشيرة كلها لم تكونوا تتخيلون في يوم ما أن يأتي من يرميكم جانباً ويرث المهنة والهوية!

آه يا جدي كم أشتهي الموت لأرتاح مما أعاني، لماذا أحيا، لماذا أحيا!؟

وبين أمواج القلق والقهر والحزن والضياع والتفكير في الموت الذي لن يأتي، أومض شعاع في قلبه وروحه، وعبره إعصار هز كيانه فأخذ يرتجف هلعاً:

- لم لا تغير مهنتك أيها الغبي!! لم لا تتحول!؟ لتكن مهنتك دعوة الشريرين الكبيرين إلى الخير!!

شرد وحملق في الفكرة، ارتبك، ومضت العاصفة، فهدأ.. أليست خيانة للعشيرة ورسالتها ومبادئها وتاريخها؟!

أأتسلل إلى عالم الأشرار لأهديهم إلى الخير، أأكون داعية خير وأنا الشيطان!؟

وكأنما سمع صوت جده يفح:

- وهل ما زلت تمتلك هوية ومهنة وكينونة!؟

فرد:

- وهل أستطيع هداية العم سام وديفيد وقد أخفق دعاة الخير كلهم معهما!!

ولم يأته جواب جده، فأخذ يستعيد الفكرة ويلوكها مرات ومرات.. فراقت له وجادت في عينيه وقلبه وعقله!

لقد شده الشيطان من فكرته الشيطانية، أينقلب مئة وثمانين درجة!؟

وهل هناك حل آخر وقد أخفق في التنافس والمزاحمة أمام احتكار السوق!!

وإذا كان الموت ممكناً، أليس هو هروباً وخلاصاً فردياً له!؟ وما مصير بقية العشيرة!؟

أليس الهدف أن يوسوس ويوحي ويؤثر ويلهم ويهامس البشر!؟

توقف ملياً، ثم فكر وفكر وفكر فاتخذ قراره الحاسم وبقناعة تامة، ومن ثم طار إلى عشيرته كنسر جامح ودعاها والقبائل كلها إلى اجتماع طارئ فوري. ولما تحلق حوله الشياطين والأبالسة وقد أضناهم ما أضناه وآلمهم ما آلمه وأذلهم ما أذله، طرح إستراتيجيته الجديدة التي وصل إليها، ومن ضمن ما قاله لهم وبالمنطق والبرهان:

- إنه انقلاب جذري في حياتنا، لن يستطيع شرنا هزيمة شر العم سام وديفيد، وكلكم دخل في التجربة ويعاني مثلي، ونحن ميكافيليون وبراغماتيون!؟ إن ساحة الشر البشرية كبيرة جداً ومجالها الحيوي يؤمن العمل المستمر لنا وهذا يعني لقمة العيش للجميع، وبرسالتنا الجديدة يصير لوجودنا هدف نعيش من أجله مما يعنى أن تصير حياتنا لها معنى ومغزى وأهمية.. ولن نخشى ونهاب المنافسة فأنتم تعرفون تماماً أن الأخيار يتمنون أن يزدادوا كل يوم وسوقهم مفتوحة للجميع...!

هاجت الشياطين وماجت وكثر الهرج والمرج، وتعالت الأصوات والنقاشات الحادة الجانبية والجماعية ما بين موافق ومعارض، وانقسمت العشيرة والقبائل وكادت أن تتقاتل فيما بينها،

لكن زعيمهم الأكبر طالبهم بالهدوء فهذه قضية مصير ومستقبل، قضية وجود وكينونة، ودعاهم إلى الحوار الهادئ، فامتثلوا للأمر وأطاعوا..

وبعد نقاش هادئ ومنظم ولكنه حاد، تم الاتفاق على طرح الموضوع للتصويت، فالشياطين والأبالسة يحترمون الديموقراطية التي تعلموها من العم سام وديفيد، وطرح الموضوع المصيري للتصويت، فنجح بأغلبية ساحقة!!

*****

الغريبان

خرج من السجن في اليوم الموعود. السماء تتلألأ بنقائها الضاحك، وكل ما حوله يغني له على إيقاع موسيقيّ عذب. غبّ نفساً عمقاً وملأ رئتيه حتى الثمالة. فأحس بعبق لذيذ ومنعش يجتاح كيانه كله بنشوى لا مثيل لها.

تقدم بضع خطوات، وعيناه تلوبان عنهما بين الناس. كانتا على بعد أمتار منه. تلكأ ملياً وهو ينقل بصره بينهما كمن لا يصدق!

مشت على وجه زوجه خطوط باهتة شاحبة، ولكنها لم تكسر رونقه ونضارته. ووخط بعض الشيب فوديها.

ابتسمت عيناها بحب وشوق دافئين، فضحكت عيناه وهرع إليها وضمها بكل قوته. سحت الدموع كقوس قزح، فغسلت ماضياً ممضاً تبخر على إثرها، واندثر خلف ظهرهما.

قالت الزوجة وقد امتزجت كلماتها بدموع الفرح:

- هذه ابنتنا! انظر؛ صبية، شابة، عروس....

تأملها مشدوهاً. كانت عيناها تحدق إليه وقد فغر فمها. قامتها فارعة زحفت إليها الأنوثة اختيالاً ورشاقة. وجنتاها كورقتي وردة أطلت بحياء من مكمنها، فازدادت حمرتها روعة. وانسدل شعرها على كتفيها كليل شع منه وجهها.

الذهول سمره في مكانه. لا شيء في أعماقه يستحثه على الحركة. جمدت عواطفه، فانحبست في مؤقيه الدموع.

زاغت أفكارهما في عالم مجهول لا تعرف كنهه. موجة ضباب كثيفة غطتهما بعباءتها، فأفقدتهما كل ما رتباه، فتلاشى كسراب.

لأول مرة يلتقيان، أحلام ورؤى وأمنيات، كأنما ولدت في عالم آخر، ثم انكفأت إليه مبخوعة أمام الواقع المرئي غير المطابق لها.

* * *

أربع عشرة سنة أمضاها مرة، قاسية، كسكين تنخزه، تسلخ جلده في كل هنيهة. عدها بالساعات والدقائق.

الاتصالات والزيارات ممنوعة. ولا أحد يعرف مكان سجنه. وحتى لو ألح على معرفة العنوان، سيصد بعنف، ويحصل على جواب بعد تقريع شديد: لا نعرف!

اقتلع من الجذور ورمي وحيداً في معزل عن العالم الخارجي. وكان وقع هذا عليه كنصل حاد يقطعه فوق ما فيه من الجروح والتمزق.

السنوات الأولى مرت بطيئة، رتيبة، مملة. لا صحف، لا مجلات، لا كتب ولا مذياع ولا تلفزيون. ولم يفده اجترار السأم والاستياء، فقرر أن يتأقلم، وأن يعتاد على وضعه، فلا بد وأن يخرج في النهاية.

وبعد بضع سنين سمحوا لصحيفة يومية ومجلة أسبوعية بزيارتهم. كما سمحوا لهم بمشاهدة التلفزيون ذي القناة الواحدة.

لم يبدل السجن أفكاره ولم يتغير، رغم أن بعضاً ممن معه أطلق سراحهم على إثر توقيع ورقة، لم يقرأها، بل لم ينظر إليها.

* * *

انقضت ثلاث عشرة سنة وأحد عشر شهراً، ولم يدر أن له ابنة! وقبل الإفراج عنه أبلغوه قرار العفو، وسمحوا له بالمراسلة، وأعطوه ورقة وقلماً.

عندما دخل السجن، كانت امرأته ما تزال حاملاً في شهرها الأخير، وبقيت أيام تفصل بينها وبين وليدهما الأول. جهزا سريراً صغيراً، وأعدّا ملابس له.

وأخذا يترقبان ساعة مجيئه، وهما على أهبة الاستعداد. والطبيب يقول: ها اقتربت، امشي كثيراً، فهذا يسهل الولادة. وبدأت مسيرة الخبب الطويلة؛ ساعتين، ثلاث.... ولربما أكثر، عصر كل يوم في البرية بعيداً عن البلدة.

وجاءت تلك الأمسية المنحوتة في الصخر. قُرع الجرس، ففُتح الباب.

ثلاثة أجساد ملأت المدخل، سأله أحدهم:

- أأنت فؤاد....؟

- نعم!

- تفضل معنا!

وأخذوه مكبلاً من بين دموع زوجته وأنينها. ولم تجدها التوسلات، ولم ينفعه الاستجداء لتوديع زوجه. وغاص في غياهب السجن، وانقطعت أخباره.

الهواجس تنوس أمام عينيه، بين كوابيس وأحلام متفائلة: ستلد زوجتي إن لم يحدث مكروه. الطبيب قال: الوضع ممتاز. أذكر هو أم أنثى؟ شتان لا فرق. لا ميزة لأحدهما على الآخر. إن وُلدت أو وُلد في ميعاده، عمره الآن يوم... يومان.. ثم... شهر.. سنة.....

ومضت السنون.... الآن سيكون أو ستكون في نهاية المرحلة الإعدادية.
ستعاني زوجتي كثيراً، ستعتمد على راتبها، حياتها صعبة؛ العمل، الطفل، شؤون البيت... لكن الأهل والجيران لن يتخلوا عنها، وسيقفون إلى جانبها وجانب طفلنا.
وقفز كالمجنون عندما وصلته رسالتها قبيل خروجه بأيام. لم تخطئ عيناه خط زوجته. لم تفقد الأمل والإرادة. ولدت ابنة حلوة وناعمة. ووجدت فيها عزاءها وسلواها. صارت في الثالث الإعدادي. لم ترسل صورتها، لتكون مفاجأة له. وستكونان بانتظاره أمام باب السجن يوم خروجه.
رقصت عيناه فوق الأسطر، وكان عيداً قبل عيده الأكبر.
لا يستطيع أن يتذكر عدد المرات التي قرأ فيها الرسالة. ولكن عندما خطفها منه أحد زملائه في الزنزانة ليمازحه، ضحك من أعماق قلبه، ومن الأعماق تلك، تلاها غيباً دون أي خطأ أو تلكؤ.

* * *

حملقا إلى بعضهما. وتشنجت أيديهما فلم تمتدّ. تاق إلى ضمها، همس في سره:
- ما أروع أن يحتضن الأب ابنته، أن يسمع كلمة: بابا!
ولكن كيف وقلبه لا يخفق لهفة!؟ ولم يعهده إلا عامراً بالحب. ما أصعب أن تنطفئ جذوة المشاعر وقت الحاجة إليها، وقد كانت متأججة خلال أربع عشرة سنة!!
يعرف تماماً أن حبه ولد دونما تاريخ. لم يلمسه، لم ينمُ مع لقمة، كلمة، ولم يترعرع قدام عينيه، ولم يتعايش معه. فهي لم تحبُ نحوه، لم يحملها قط، لم يداعبها ولم يحتضنها، ولم يهدهد لها لتنام مطمئنة بين ذراعيه.
الحب ولادة، ولا يهطل من السماء كالمطر والثلج. ولا يأتي مع نسمات رقيقة في لحظات هيام ربيعيّ. الحب يزرع ويسقى ويربى ويحتضن برموش عينين ضاحكتين، فلا ينزوي ولا يذبل.
كم يود أن يقول: أحبك بنيتي. ولكن الكلمات في صدره لا تريد أن تتقدم إلى لسانه. وشيء ما أوصد بوابة فمه.
ما تعود النفاق أو المراءاة أو التملق. أيجامل الآن؟! كيف؟ سيحبها حتماً، وسيخبئها في مقلتيه لتنعم بالأمن والاطمئنان والراحة.
وسيعوضها عما فاتها من حبه وأبوته. ولكن الآن!!

* * *

قالت الأم لابنتها بارتباك شديد واستغراب:

- مالك مضطربة؟! إنه أبوك، وكنتِ تنتظرين هذه اللحظة مثلي....

تلبدت الابنة. قيدت بحبال وأسلاك. توترت أعصابها. لم تقو على تحريك أي عصب فيها. نادت أحاسيسها وما من صدى لندائها.

انتظرت أن ترتمي في حضنه، أن تغمره بدموعها وقبلاتها، أن تناجيه كما دأبت: بابا، أحبك أبي، أنت عظيم، اشتقت إليك....

إلا أنها ضاعت في دياجير غابة مجهولة، غرقت في محيط ولا تعرف السباحة ولا العوم. المفاجأة الغريبة تجترها. هذا الإنسان الماثل أمامها هو أبوها، لكنه يختلف عن الصورة التي رسمتها في عقلها وقلبها طوال مدة غيابه. وتلك المدة كافية لأن تخلق إنساناً جديداً في تكوينه، ملامحه.

الشيب غزا شعره، الصلع أزاح خصلات شعر من مقدمة رأسه وحل مكانها. وهذان الشاربان اللذان يشوب سوادهما البياض، لم ترهما في أية صورة له.

وكيف يكون هو وتفر من بين أصابعها عواطفها، ويجف نهر مشاعرها الفياضة؟! أين المخيلة التي غذتها كل يوم، ورافقتها خلال نموها وفتوتها ساعة فساعة، ويوماً فيوماً؟!

لم تقل له كلمة: بابا. ما الطفولة دون أب؟ ألم تمضغ ذلك وحدها بكآبة، وهو مثلها المصلوب!؟

لم تستيقظ مرة على ابتسامته، لم يرو لها حكاية. لم تخرج معه إلى أي مكان. ولم يهز لها أرجوحة، بل لم يركبها فيها. لم يشاركها فرحاً أو حزناً. لم يسألها يوماً عن دراستها، أمورها.... ولم يغتبط لنجاحها المتفوق، ولم يفتخر بها. ما من ذكريات معه!!

لا! ليس هو حتى ولو شابه الصورة، فكيف وهو لا يشبهها؟!!

* * *

كانت الأم تقول لها عندما تسألها عنه وهي صغيرة:

- أبوك مسافر.. مسافر... وسيرجع.

ولما كبرت، لم تعد مقتنعة بقصة سفره؛ أين؟ ولم لا يتصل، لا يعود؟ أين الرسائل؟ أو هذا حال كل المسافرين؟!

وأصرت على معرفة الحقيقة. وأدركت الأم بحدسها أن الوقت ملائم لذلك. فقالت لها بارتياح:

- هو في السجن!
صعقت الابنة. تيار كهربائي مسها وسرى في شراييها وأعصابها وفجرهما:
- لم؟ ماذا فعل؟ ماذا ارتكب؟ أهو مجرم؟! ولِمَ تخفين الأمر؟
وارتمت على كرسي تنشج بصوت عال. فتقدمت الأم منها ومسحت دموعها، ومسدت شعرها بحنان، ثم ربتت على كتفها:
- سأشرح لك. إنه سجين سياسي، وليس مجرماً. سجن بسبب مبادئه وأفكاره.
قالت الابنة مبهوتة:
- غريب! كل هذه السنين لاختلاف في الرأي؟!
قالت الأم بحسرة و ألم:
- نعم! هذا ما حصل. عندما يغيب التسامح، يصير السجن مأوى للطرف الآخر. إنها الحرية التي كان أبوك يدافع عنها.
أحست الابنة بزهو يملؤها، وباعتزاز به لم تعهده من قبل.
فقالت باستنكار:
- وما الحكم الذي أصدروه بحقه؟
ابتسمت الأم ساخرة:
- أدخلوه السجن دون محاكمة، ولعلهم نسوه هناك، أو تناسوه!!

* * *

غيوم تغطي السماء. لا هي بيضاء ولا سوداء. لا شمس ولا عتمة. لا مطر ولا صحو. الأفكار تحوم حولهم تنتظر من يقتنصها من متاهة لا نهاية لها.
تبادل الثلاثة النظرات الشاردة. ارتعشت شفتا الأم، تريد أن تفصح عن شيء ما، ولكنها حارت، فلا تدري كيف. طفرت دموعها حارة متلاحقة.
فكر الأب طويلاً، وتوصل أخيراً إلى حل وجده معقولاً. فمدّ يده إلى ابنته، فمدت يدها، وتصافحا بحرارة. وتحشرجت الكلمات في حلقه ثم زحفت فاترة نحو لسانه، ندية بدموعه، فقطع الصمت:
- ابنتي، لا أجيد تنميق الحديث. ليست بيننا معرفة سابقة إلا عبر الخيال. لم نر بعضنا قط. لنبدأ تاريخنا من جديد. يمكن في البدء أن نكون صديقين!
وانفلتت دمعة من لجامها، فانزلقت من عينيه. تأوهت الأم وأخفت وجهها بكفيها.

وصدمت الكلمات الابنة، فأبكتها، واختزلت السنين المتراكمة خلفها.
قالت في نفسها:
- إنه أبي بلحمه ودمه. وهذه هي الحقيقة، وما عدا ذلك وهم. وأستطيع أن أتحول بعواطفي إلى حب الواقع، لأني أريد هذا الحب، وهذا يحتاج إلى زمن. حسناً لنكن في البدء صديقين حميمين، ولم لا كنقطة انطلاق في درب أحب أن أسير فيه إلى جانبه مرفوعة الرأس.
نظرت إلى أبيها بثقة مملوءة بالقناعة والفخر. وهزت رأسها بوداعة ودماثة. وسار الثلاثة معاً تلفهم السعادة .

*****

صور المصباح

تمهيد:

كانت حكايات علاء الدين والمصباح تلمهم صيفاً حول جدهم في حوش الدار. وشتاء يتزاحمون ويتدافعون حول المنقل. وما إن يخرج المارد بعد دلك المصباح؛ حتى تنز قلوبهم ويحبس التوتر أنفاسهم، فلا يتحلحل أحدهم ولا يتنحنح. وتتسمر عيونهم في شفتي الجد الراوي، وقد انفغرت أفواههم، ودلعت ألسنتهم كالبله.

مات الجد ولم يورث أباهم سوى الحكايات والجوع. وصار أبوهم الحكَّاء بالوراثة. ومات الأب، فورث ابنه بعض الحكايات، وكل الفقر. اهترأ جلد كفيه وتسلخ من الفرك، وخبا لون المصباح وكمد، وفل ماردة وهرب.

علموه منذ أن كان يرضع، كيف تسح السماء خبزاً وزيتوناً وعنباً. علموه كيف تلد الأرض فضة وياقوتاً وذهباً. علموه كيف يلفظ البحر اللؤلؤ والمرجان والعنبر!

وسماؤه في كل يوم قحط، والمصباح مسحوج كما البحر وكما الأرض.

هروب:

في درب ترابي مشيا معاً وقد لزت به، أرخت بدله رأسها على كتفه. همست:

- ليت الدرب بلا انتهاء.

ضغط كتفها إليه، اعتصره بين أصابعه. العالم صغير بين يديه. صار حلماً؛ عبر البحر والمحيطات والغابات والجبال. حلق بين النجوم والكواكب والسموات. مر كطيف شفاف بين الشهب والنيازك. جاءه المستقبل في كرة بلورية مشرقاً متلألئاً ندياً. غدا طموحاً وعذوبة ورقة.

وشع أملاً:

- أنتِ المصباح بين يديّ!

حب دافئ لاب عنه، الشعر يتماوج على خديه كليل من عطر وياسمين، عزف الجوع عن قلبه، وتدحرج عند قدميه. تشابكت أيديهما، قال لها:

- أستطيع أن أطوق القمر!

تغنجت بدلال:

- كيف؟ أرني... ودهشت!

مد ذراعيه، وصلتا إلى القمر، وارتدتا هالة حنان وسوار ألماس.
ارتجف جسدها كزهر غصن أمالته وشوشات نسمات ربيعية.
تأوهت، والتصقت شظايا حكاية. ناجته ارتعاشة:
- لم لا تقبله؟!
دنا حتى لامست شفتاه شفتي القمر. خبأته في شعرها، في عينيها. باح قلبها:
- أنت علائي والمصباح. أنت أرضي وسمائي، أزهاري وقرنفلي وعطري وقصوري!..
حبيبته آية يرتلها. رقص معها تحت ضوء القمر قداسات حب غجرية. روى لها عن مغارات كنوز الذهب والفضة، وقصور الخيالات والجنان والأحلام. نسي جوعُه الرغيف. وجد عزاءه في جرحه النازف. وعدها بملاءات من سندس وديباج، حمراء، خضراء، وزرقاء.
وبعقود من الآلئ والياقوت.
وطالت ليالي شهرزاد، وفي آخر ليلة ألحت... متى؟
مضى هزيع الليل وامتد السؤال. توارت النجوم، وفاجأه الفجر، فرحل المصباح والقمر.

تصويب:

- ويحبها وتحبه... ويمقت جوعُها فقرَه!
- إذا ثارت رياح الجوع، أغلق القلب شبابيكه!
- كاد الفقر أن يكون جنوناً... موتاً... سيفاً مسلولاً!

غربة:

ركب الحمار إلى قرية وراء الجبل. سأله الحمار:
- إلى أين تسلك بي في هذا الوعر، في هذه الفلاة الموحشة الفظيعة؟!
أجابه ألمه بحسرة وانكسار:
- ماذا يفعل يا صاحبي من توصد دونه أبواب المدينة؟!
قال الحمار:
- أضاقت بك المدن والقرى والأنهار والحقول والغابات؟!
ربت على رأس الحمار، استعاد ماضياً خنقه الزمن:
- كان أبي يعود ليلاً يلهث، ويرتمي على الأرض ويخور. مات مذبوحاً كثور. ختم آخر حكاياته وهو يتحشرج جاحظ العينين:
- نحن والدواب من طينة واحدة، إن لم نجد المصباح!

سباق:

وصل إلى قرية تحتضنها تلة في مجاهل الصحراء. قال أمير العمل:

- نريد عشرة عمال، وأنتم بالمئات! سنختار عشرة منكم، وسنجري سباقاً.

أترون تلك الكومة من الحجارة، وأشار بيده، فلحقتها الأعين.

من يصل إليها قبل الآخرين يفز. العشرة الأوائل فقط.

استعد الجميع عند نقطة الانطلاق. وأعطى الأمير الإشارة فانطلقوا.

ركضوا، تسابقوا، تناحروا، تشاجروا... وفوق كومة الحجارة أومض خبز وزيتون وعسل.

المسافة بعيدة، والشمس تندلق حممها فوق رؤوسهم. زوابع الغبار والتراب كستهم لوناً واحداً.

انهار كثيرون في المضمار. وقلة وصلت بشق الأنفس بعد أن عامت في نهر من العرق. كانوا العشرة الأوائل، وطرد البقية. لم يقبل أن يطارد، أن ينافس. مضى النهار، واحمر الأفق، والعمل سراب تبخر. رجع إلى حماره. أمسك المصباح بلهفة، وفي ركن مقرور في أعماقه سخرية كسيحة.

تنقيب:

نقبت يداه حاوية القمامة، بعثر كل شيء . لعل المصباح هنا أو هناك. في هذا الكيس أو ذاك. نقب وغاص في القاع والقطط تقفز من زاوية إلى زاوية. وكلما فتح كيساً، انزلقت إليه قبل أن يولج يده. ماءت القطط إحباطاً. وهو لم يحظ بالمصباح. دوخه الدوار فتقيأ.

استطراد:

كان أحدهم من ذوي الجاه والمال والنفوذ حتى الثمالة. وقف أمام تلة من الحصى، وفي وسطها انتصب عمود، قبع على رأسه مصباح عتيق.

كان يكره إبليس كرهه للفقر.

صعد فوق الكومة حتى العمود. وكان إبليس يئن مضرجاً بدمه بين الحصى. وقف فوق رأسه المدمى. وصار يقذفه بالحجارة، بالصخور بالجلاميد... وينفجر ملء شدقيه ويبعق:

- اللعنة عليك يا إبليس!

ضرب، ركل، شتم، بصق... ولم يكتف. خلع نعليه وبدأ يصفعه.

وكانت حصى الآخرين تنهال عليه من كل صوب، والكل يصرخ:

- اللعنة عليك يا إبليس!

ملاحظة:

تألم إبليس كثيراً، وأخذ يحبو، يزحف من بين الحصى والصخور جاراً دمه خلفه، وقد اتخذ قراره؛ أن يرحل عن عالم البشر!

اختيار:

بعد أن دعسته سنابك الخيل، ومعكته في التراب، مطوا رقبته كديك. وأناخوا شفرة السكين عليها، وزعقوا:

- لم تفتش عن المصباح؟

ارتبك، ارتجفت الكلمات في حلقه وارتجت... فصمت.

قالوا:

- ألا تعلم أن السؤال عنه جريمة؟

وبدأت أصابعهم تحز الرقبة!

ارتعش جسده، ارتعدت ساقاه، ثقل جسمه، اصطكت أسنانه، نبع العرق من كل مسامات جلده، تلجلج، شهق:

- لن أفتش عنه، لن أهتم به.. أوامركم على عيني ورأسي!

توقفت الأيدي، وانثالت الأوامر:

- اضحك، ارقص، كن قرداً، دباً..

قهقه، غنى، دربك ودمه يقطر.. بحت حنجرته وهو يجأر.

انسلت دمعة كاوية على خده.

يأس:

بالأمس انتحر! اسمعوا، ما لكم لا تكترثون؟ ودمه سال من السماء برقاً ورعداً ومطراً وثلجاً. أتتابعون طريقكم ولا تبالون؟!

انفلق رأسه، تهشمت عظامه، حامت القطط حوله، نهشت لحمه.

انتحر، رمى نفسه من السماء. أنينه بددته قرقعة المصباح فوق الأرض.

خرج المارد، حدجه ببصره. شتمه شامتاً:

- أتريد الموت لترتاح؟! أكره المبخوعين والدائخين. لن أحقق لك ما تريد. لتبق وجعاً وحزناً وغماً وكآبة!

المجنون:

في الصباح عادته من كانت ذكرياته المطوية، هروبها جرح وسكين. أقبلت تختال ألقاً ونضارة وغضاضة. وأصبحت لباساً وعطراً وأصباغاً ومجوهرات.

قيل لها:

- هذا مجنون! أضاع عقله وهو يبحث عن المصباح. وجننته العساكر بأمر من السلطان، فانتحر ولم يمت، بسبعة أرواح هو! هرب ماردة من بريق السيوف وشلالات الدم.

لم ينم ليلة أمس، أطار القلق نعاسه، أنشبت الوساوس فيه مخالبها، وكان يفح في كل هنيهة:

- أبعدوها عني، تريد التهامي، انهروها... اصرفوا القطة، اطردوها.

قالت له أمه بشفقة ورثاء:

- إنها تخدعك، لا تصدقها، إنها تكذب عليك... وجدت المصباح مع غيرك!

أقعى المعتوه لاطياً، ضامراً في زاوية الفراش، يحدق إليها.

ارتجت قمره، غضب وجهها، فاكفهر وقطب وعبس، وتأجج ناراً وغطرسة، فأسرعت رياحاً عاصفة، وصفقت الباب بركاناً.

لجمته الجروح فلم يتكلم. أمسك بشظايا مصباحه، زحف كجرذ نحو النافذة. التصقت عيناه بزجاجها. رآها، نظرت بازدراء وأشاحت بوجهها ومرقت.

غضب ولم يغضب، حنق ولم يحنق، شجن ولم يشجن. نظر إلى نفسه المولودة واحترق بمرارة لاذعة.

رسالة:

يا بني! العمر كله عشته مكلومة. ويلي ماذا فعلت بي؟! قتلتني ولم تدر.

لِمَ لمْ تصغ إليّ؟ قلت لك: لم يبق لي غيرك. لا تكن متهوراً، غبياً، أحمق، ولم تأبه. عيناي أنت، كأبيك عنيد. قتله المصباح. وها أنت تلحق به. وأنا الملتاعة.

جننوك ولم تجن. نحروك ورموك من شاهق، ولم تمت.

الأرزاق مقسومة، والناس درجات. ما لنا وللمصباح. تتسكع بين الناس، وتهلوس بأعاجيب الإنس والجان. تلملم حولك الطيبين والمساكين، وتكد معهم في تعقب أثر المصباح.

أنذروك، حذروك، ولم ترتدع. وعلقوا اسمك في كل زقاق وحارة. وكان رأسك صخراً كالجبل.

لم أزعجت صاحب الشرطة، والشاه بندر؟ لم أغضبتهم؟!

من يروي الحكايات من بعدك ؟ أنت وحدك من يعرفها. مَنْ يرويها ؟ مَنْ ؟

القنيص:

ألصقوه بعمود سامق امتد حتى غيوم السماء، فانسكب ماء وورداً وزنبقاً وغاراً.

قرئ بيان الموت:

"على الرغم من تحذير هذا الملحاح، ما زال يلح في طلب المصباح. يجمع الداقعين من أراذل البسطاء والسذج في دياجير الظلمة، ويحرشهم، ويحرضهم على السلطان المعظم، والعسس والبنادرة. لقد دبت الفوضى، واضطرب حبل الأمن والأمان، وصعصع الناس في كل زمان ومكان.

وتبين أن ذاك المأفون الخراص هو المسؤول عن كل شغب للغوغاء والعامة. لقد هوش بين الناس. ولكن أين يختفي من عيون البصاصين والعسسة؟! لقد بثثنا العيون في كل مكان؛ في الجبال والوديان، في البيوت والحارات، في الزوايا والتكايا والساحات... حتى قنصناه.....".

قرعت طبول النصر، وقعقع السلاح وخشخش، ولعلعت أهازيج البازار، وزغاريد القصور.

شرخت حجارة القلعة، تزعزعت وتصدعت، فصدحت أغان كئيبة حزينة. وبكت العوام، ولم تنم تلك الليلة.

النهاية:

نظر ببلادة إلى جسده المتكئ إلى العمود بارتخاء، خدر عظمه، غشيه النعاس. أغضى عينيه بارتياح. فرك المصباح. هرع إليه المارد يتبختر، متأبطاً الزمن الماضي والحاضر والمستقبل، حاملاً إليه مشارق الأرض ومغاربها. وقف أمامه، حدب عليه، طأطأ رأسه، وقال:

- أنا المارد العملاق عبد مأمور بين يديك. اطلب، تمن، مر. أنفذ بلمحة البرق ما تشتهي وتتمنى.

أأجعل الأرض لك ذهباً؟ أتريد قصوراً، ملأى بالجواهر والزمرد والمرمر، وفيها حدائق وبرك ماء من العقيق والدر والعاج والزبرجد، أتريد موائد، عليها ما لذ وطاب، وما يخطر في بالك وما لا يخطر؟

قاطعه:

- لا! أرجوك...

قال المارد محتداً:

- أتريد أن أنتقم لك. أهدم القلعة، أحطمها؟ أنفث فيها لهيباً وناراً وأعاصير؟ أزلزل الأرض، أخسفها، أقلب الجبال، أفجر البراكين؟!

قال بهدوء وتوسل حميم:

- أتوق إلى حصان أبيض يطير بجناحين. أو أتوق إلى بساط سحري ناعم كخميلة، يطير بي في الفضاء بين الكواكب والنجوم، أتمدد فوقه وأنام بسكينة واطمئنان.

* * *

ملحق تأبيني:

في حكايات ألف ليلة وليلة، بطل واحد هو المقهور والمقموع والمضطهد وهو المنتصر.

تعفن جلده، تعفن على امتداد لياليها السود والبيض والحمر. ثم أشرق كالشمس. أغلقت دونه الخزائن والحدود. غادرته الأشرعة والشواني. حجبت عن عينيه السماء والفضاء والنجوم، وبقي وحيداً في جزيرة الواق واق يلعق جراح جسده المسجى.

ما من طريق إلى جسده. ما تحت السماء عنقاء تلقفه.

رموه جسداً مثخناً مدمى. أحاطوه بالرماح، بالسيوف، بالخناجر، بالسموم. وكان مربوطاً مقيداً بألف حبل وحبل، بألف سلسلة وسلسلة، بألف مكيدة ومكيدة، بألف مؤامرة ومؤامرة. بألف بصاص وبصاص، وبألف عاسّ وعاسّ. بألف جلاد وجلاد، بألف سياف وسياف، بألف سجن وسجن. بألف وزير ووزير، بألف سلطان وسلطان.

وكان وحده بألف روح وروح، وبألف جسد وجسد، وبألف ولادة وولادة. وبألف كبرياء وكبرياء. وبألف لا ولا!

*****

السياسة

اعذروني فأنا لا أفهم ما يدور حولي! قيل لي إنها السياسة. لم أعرف ما المقصود بذلك، ففهمي للسياسة والطب واحد، وكل ما أعرفه عن الطب لا يتجاوز المعرفة بأن الطبيب يعيش من خلال تعامله مع اللحم والعظم ليعرف المرض!

لحام حارتنا أبو... لعلكم لا تعرفونه.. خيل إلي أنه طبيب، إني أراه دائماً بين اللحم والعظم.. سلمت عليه، وجلست بين يديه لأتعلم مهنة الطب، حتى أفهم السياسة كما قيل لي! بقيت ساعات بين يديه كتلميذ نجيب بين يدي شيخه.. شعرت بعلمه الغزير، وخرجت من بين يديه وأنا متيقن بأنني فهمت كل شيء. لكن غبائي كان أكبر. لقد نسيت، نسيت معظم تعاليمه! لا تسخروا مني! فمازلت أحفظ شيئاً عنه لقد قال أبو.. ذكره الله بالخير: أنا إذا أردت ذبح الشاة أحكم ربطها أولاً..

جدتي تضحك مني، ولا تقتنع بأن أبا... سيعلمني الطب، وبأن الطب مدخل للسياسة. لقد نصحتني بأن أذهب لأستاذ المدرسة في حارتنا...

كل ما كنت أعرفه عنه أنه أستاذ مدرسة..

رحب بي وأفهمني بأنه يجب أن أتعلم الهندسة، حتى أفهم السياسة!

لا تستغربوا فلقد استغربت قبلكم!.

قال الأستاذ لي: إن السياسة دائرة كساحة بلدتنا.

خرجت مسرعاً لأرى الهندسة على الطبيعة، وعدت خائباً ألعن الدوائر والهندسة..

ضحك الأستاذ مني وقال لي:

- حسناً، حسناً! الآن بدأت تفهم! وعلمني النظرية الهندسية الثانية:

الهندسة في السياسة خط مستقيم فيه تعرجات، لكنه كدرب حارتنا يوصلك في النهاية إلى البحر!

أسرعت لأرى الدرب، سرت فيه حتى وصلت إلى شاطئ البحر. لقد أصابني التعب والإرهاق، فقعدت على الرمل أتأمل البحر، وأراجع ما حفظته من علم الطب والهندسة والسياسة.

*****

السيجارة

لم يستطع صلاح النوم، كان مستلقياً فوق الأرض التي أحبها.. وها هو ينهض يبحث عن شيء يغالب فيه النوم. تردد بعض الوقت، ولكنه أخيراً اتخذ القرار النهائي حين زحفت كفه ببطء نحو جيبه تتلمس علبة السجائر، وأخذت أصابعه تعبث بها، وشيئاً فشيئاً أخذت تسحبها من مكانها.

صارت خارج الجيب، بين أصابعه، قلبها في كفه بلهفة.. وأراد أن يمد كفه الأخرى ليخرج سيجارة.. كانت يده ممسكة بالبندقية.. ترك البندقية متكئة على الأرض، شعر بارتياح.. قرّب أصابعه من العلبة..

كان الظلام مُسدِلاً سواده إلا من ضياء الأفق حيث يتسلل عبر الفضاء بحياء وانكسار. نظر نحو رفاقه.. كانوا ثلاثة نائمين، تمددوا بجانبه ولم يبق منهم وسط الظلام سوى أشباح غير واضحة المعالم.. يسمع لهاث أنفاسهم وقد لفهم دفء آذار بلفاع رقيق.

تناول طرف السيجارة، قال في نفسه:

- لن يرانا أحد!

نهض صوت من أعماقه، حاول جاهداً أن يبقيه نائماً فأخفق.. قال بنبرة حادة:

- لنفترض أن هناك من يراقب المكان في هذه اللحظة! أنسيت الأوامر؟

انتفض صلاح من حلم سيأتيه، من خيال ركض وراءه، ما أن أدركه حتى بدأ يهرب من جديد... قال لنفسه مبرراً:

- نحن بعيدون جداً عن موقع العملية التي نفذناها.. لا يوجد أي خطر!

تردد طويلاً لأن صوت الداخل كان يهمس إليه بأنه قد يدفع نوم رفاقه المطمئن إلى الجحيم. السيجارة مازالت بين إصبعيه المرتعشتين ترتفع ببطء نحو فمه.. أخذت شفتاه تتحركان بفتور على إيقاع ارتعاش الأصابع. اقتربت السيجارة من فمه، قرَّبها من أنفه، شم رائحتها، الرائحة اخترقت منخريه مخدرة ما تبقى لديه من مقاومة.

لم يشعر برغبة في التدخين كرغبته في هذه اللحظة، كل تفكيره صار أسيراً تهيمن عليه السيجارة.

أصابعه تنتشي بملمس فلترها الناعم.. قرَّب الفلتر من شفتيه، قبلت الشفتان طرف الفلتر بانتعاش.. اضمحل عالم وراء عالم.. وضاقت عليه الأرض باللذة، فامتدت نحو السماء.. شفتا

حبيبة، رقيقتان كورد وياسمين.. مدَّ يديه مسرعاً إلى جيبه.. أين علبة الكبريت.. ها هي.. أخرجها، تناول عوداً منها.. كانت الأصابع ترتعش، وقع العود على الأرض.

فتح العلبة ثانية، أخرج عوداً آخر، أمسكه بحذر.. نظر حوله.. كل شيء هادئ إلا من صفير رياح خافت.. ثبَّت السيجارة بين شفتيه، الشفتان ضغطتا بعذوبة على الفلتر.. قال المستيقظ في أعماقه:

- افعلها، وأشعل نيران متعتك.. أرواح الثلاثة بين يديك!

لن يستغرق إشعالها أكثر من ثانية، ثم هل ينتظر الأعداء قبس ضوء لفتح النار؟

قال المستيقظ:

- وهل في المكان بيوت أيها الغبي؟

نظر حوله، قام، مشى قليلاً، العتمة شديدة، البرية الوعرة بعيدة عن الجبل..

وصلوا مرهقين بعد جري طويل، وعلى عجل ارتمت أجسادهم فوق الأرض.. زرعوا لغماً لا يدرون متى تمر سيارة للعدو، مصفحة، دبابة.. لقد نجحوا في المهمة وخلال ساعات قريبة سيسمع من المذياع عن انفجار آلية..

تاقت نفسه للسيجارة في هذا العراء الموحش.. الليل يمر بطيئاً قاتلاً.. دمه ينهش كل قطعة فيه.. كلما قاوم وطرد شبقها، كانت تزداد شراسة وضراوة.. قال:

- أين سأشعلها، بنت الحرام هذه؟

وقال المستيقظ في أعماقه:

- أتغامر بحياتهم من أجل نزوتك..

صرخ صلاح:

- اغرب عن وجهي أيها اللعين!

امتدت أصابعه نحو شفتيه، قطع القبلة بينهما، أمسك بالسيجارة بكفه.. لاكها بعنف، فَرَدَ أصابعه، أمال كفه، وتركها تنفلت متناثرة على الأرض.

*****

صبر أيوب

أخذت عينا أيوب تتنقل في أنحاء الغرفة التنكية السقف، التخت المهترئ مكانه، يذكر يوم اشتراه بثمن بخس ليرفع به جسده عن رطوبة الأرض، الخزانة العتيقة ذات الأبواب المخلعة هي نفسها يوم أعطاه إياها جاره بعد أن ضاقت عليه الحياة، فترك كل ما يملك للجيران وسافر..

حبات المطر تنقر على السقف التنكي، فتدوي في أعماق أيوب، فيبصق على الأرض، ويتمتم شاتماً:

- إلى متى سأبقى هكذا ؟

ودونما أي شعور أخذ ينقب جيوبه للمرة العاشرة، ولم يجد شيئاً. عسى أن يكون هناك قرش علق في زاوية من زوايا الجيوب! لقد طرده صاحب العمل بالأمس لأنه طالبه بزيادة أجره، والجوع بدأ ينخر أحشاءه، والمطر ينقر على رأسه!

أبو حسن قال له:

- الفقر يتسكع في الشوارع! الغلاء يعربد في كل مكان، لازم تصبر يا أيوب!

وأبوه علمه قبل موته:

- الحياة حلوة، الحياة بريئة براءة الطفل، الآخرون هم يلوثونها! نعم، هم يمزجون ألوانها، هم يفعلون، إنها بريئة، بريئة...

ويتساءل أيوب:

- إلى متى سيبقى صاحب العمل يستعبدنا كل يوم، وفي جيبي لا أثر لقطعة نقود!؟

لم عبد المحسن يشمخ بسيارته، بينما أذهب أنا سبعة كيلومترات مشياً على الأقدام لأصل إلى المعمل، وفي آخر الأسبوع أعود بالباص ونحن محشورون كالدجاج!؟ وعبد المحسن يشمخ ويأكل الدجاج!!

سماه أبوه أيوب تيمناً بصبر أيوب كما يقول، عسى أن يتحمل كما تحمل أيوب زمانه، ولكن صاحبنا أيوب تمنى اسماً له هو: عجول!

لم يكن أيوب من ذوي الصبر الطويل، فكم من مرة صرخ في وجه جاره أبي حسن:

- أيوب مات، الصبر لحق به!

أبو حسن ذاك جاره منذ زمن قريب، تعرف إليه، فوجد فيه ما ينقصه، فأحبه، فكان يأخذه معه بين فترة وأخرى إلى جماعة من أصدقائه، وهناك يسمع أشياء كثيرة! وقد أولع أيوب بتلك الأحاديث حتى أنه كثيراً ما يلح على أبي الحسن أن يصطحبه دائماً إلى أصدقائه.

لقد حدثه أبو حسن عن جمال الحياة وروعتها، فكان أيوب يهز رأسه موافقاً، وأحياناً يقطع حديثه ليقول:

- نعم! إن الحياة حلوة وبريئة، رحم الله أبي! هكذا كان يقول لي، لكن أولاد الحرام هم يفسدون براءتها! فتراهم فوق، ونحن تحت، هم يصعدون ونحن نهبط! قل لي يا أبا حسن ما ذنبنا حتى جعلنا فقراء؟!

وهنا تستنشط قريحة أبي حسن فيستطيب له الكلام:

- الفقر هو ذنب! أتدري يا أيوب بأن الفقر كفر ـ ويشده أيوب ـ بينما يتابع أبو حسن:

الكفر بكل القيم السائدة، بكل المفاهيم الدارجة، بكل الأساليب المهترئة، الفقر ـ يا أيوب ـ يعني الثورة، الثورة...

أمام هذه الكلمات يحلق أيوب في الفضاء! ينسى كل شيء حتى نفسه! ولئلا ينسى تلك الكلمات يرددها بينه وبين نفسه، وحتى يطمئن أكثر، يرددها أمام الآخرين خشية أن تضيع إحداها عنه!

وليس هذا كله فقط، إنما علمه أبو حسن أيضاً بأن الفقر كتاب ثوري، كتاب نظري تلزمه الممارسة فتصنع الثورة!

وشيئاً فشيئاً انقلب أيوب رأساً على عقب، فهو لا يفارق أبا حسن، بل أكثر من هذا، أعطاه أبو حسن ذات مرة كتاباً صغير الحجم، وحذره من اطلاع الآخرين عليه، فكان أيوب يخبئه بحذر شديد بين طيات ثيابه، وما هي إلا أيام قليلة حتى حفظه عن ظهر قلبه! كيف لا يفعل ذلك وهو المولع بفهم ما غاب عنه وعن أبيه وجده! لقد غدا أيوب إنساناً آخر، هكذا يقول أهل الحارة عنه، ولا سيما من عرفه قبل مجيء أبي حسن وكلهم كان مشغولاً بسؤال أيوب والذي أحرج به أبا حسن:

- كيف نغير الواقع نحو ما نؤمن به، ودون تجاهل لهذا الواقع الحاضر، إن لم نلم أنفسنا وننظمها ونعمل بصدق وإخلاص!؟

صحيح بأنه كان في الوقت نفسه مقتنعاً من أبي حسن بأن هذا الواقع الحاضر هو نتيجة تاريخ طويل، تاريخ المئات من السنين وما حملته من مفاهيم وأفكار، فما يرى ما هو إلا

ترسبات ضاربة جذورها في الأعماق البشرية، وليس الأمر يوماً وليلة، وليس الأمر مجرد رفض فثورة! إلا أنه كان يحاجج أبا حسن فيقول له:

- الأمر رفض، فبرنامج، فعمل منظم ومستمر. نفس طويل وصبر أطول، الزمن معنا، القضية قضية إيمان وعمل.. كل هذا على رأسي وعيني! ولكن متى نبدأ؟!

فيجيبه أبو حسن: صبرك يا أيوب! صبرك!

أهل الحارة كلهم لاحظوا تغيرات أيوب، فبعد أن كره الحياة فيما مضى أضحى الآن يحبها بل ويعشقها، ولكنه يكره ويلعن من يمزج ألوانها.. وكلهم يتهامس عن كلامه الجميل عن الواقع، والمستقبل القادم بواقع جديد، وكلهم معجب بتفاؤله الشديد!

والجميع يذكر يوم عاد إلى الحارة ذات مساء وهو يشتم ويلعن، فتحلقوا حوله:

- خير إن شاء الله يا أيوب!

- أريد أن أفهم أهم على حق! أم الكتب وثورات الشعوب!؟

- كله خير يا أيوب!

- والله يا جماعة، ضاعت الأمور، أحس بأنني أدور في الفراغ، نفسي تقطعت!

- الله كريم يا أيوب!

- أيامهم كلها حكي بحكي، وأنا بقولهم: طيب وبعدين!

ويومها اقترب أبو حسن منه وصاح في وجهه:

- كلامهم صحيح يا أيوب! ...

- طيب يا أبو حسن مش لازم نظم أنفسنا ونخلي الفقرا توقف معنا! مش لازم نفهمهم ونوعيهم، مش بتقولوا هم اللي حيصنعوا الثورة؟!

- صبرك يا أيوب، صبرك! ما انت عارف الواقع وصعوباتو!

- يا سيدي تحملت الكثير وأنت عارف، تحملت عشان سمعت كلام كله حلو تمنيت أنو يكون؟ لكن امتى؟ امتى حنطبقو؟ وأنت شايف متلي، ما نحنا مش غشم عابعضنا و..

قاطعه أبو الحسن:

- لا يا أيوب أنت مخطئ!

- اسمع يا سيدي! بتسكت وله أحكي شو عما يصير عنا بين الحكي الحلو وبين العمل الـ...

فقاطعه أبو حسن، إلا أن أهل الحارة لم تعجبهم مقاطعة أبي حسن لكلام أيوب فصرخوا:

- احكي يا أيوب، احنا مصدقينك، أنت واحد منا!

فأخذ أيوب يحكي كل ما في قلبه وقد امتلأت عيناه بالدموع!
يومها فقد أبو حسن أعصابه الهادئة وكاد أن يضرب أيوب، إلا أن أيوب ركبه الصبر! ومنذ ذاك الوقت ساءت الأمور بينهما، ومن بعدها ترك أبو حسن الحارة كلها ورحل عنها.
المطر ما يزال ينقر على السقف التنكي، وأيوب ما عاد أيوب، لسانه اندلق في كل مكان! ولم يعد يخشى شيئاً! وعبد المحسن صاحب المعمل الذي كان يعمل لديه منذ شهر طرده بالأمس، لأنه أقنع العمال بالإضراب عن العمل ،حتى يزيد عبد المحسن أجورهم، لقد طرده وتوعده! ولما لم يعطه أجره عن أيامه الأخيرة ضربه، فهرب عبد المحسن إلى غرفته، وأغلق عليه الباب واستنجد بالسلطة! فهرب أيوب على كره منه تلبية لنصيحة رفاقه العمال ولزم بيته..
الجوع ينهشه، والمطر ينقر على سقف غرفته، وعيناه تجوب أحشاء الغرفة، وأذناه تتابعان صوت سيارة تقترب من بيته، وكلما ازداد اقترابها، ازدادت دقات قلبه إلا أنه استعاد أيوبيته عندما شعر بأنها توقفت أمام بيته.
- إذاً وصلوا أخيراً!
الباب يطرق بعنف، فينتصب أيوب بكل شجاعة ويتقدم نحوه بهدوء وببرودة أعصاب، ثم يفتحه، فيندفع رجلان إلى الداخل ويرميه أحدهما أرضاً بكل ما أوتي من قوة ويسأله بكل غطرسة:
- أأنت أيوب الزفت؟!
فينهض أيوب بكل عنفوان ملوحاً بقبضته:
- نعم أنا أيوب! وعارف أنكو حتيجو، يله خدوني، صاحب المعمل كلب ابن كلب، وانتو كمان كلاب لأنكم خدم الوه!...
وبعد جهد كوموه في السيارة وهو فاقد الوعي، وانطلقوا مسرعين مجتازين الحارة، مخلفين وراءهم عيون أهل الحارة، وهي ترمقهم بتحد مريع تحت المطر.
*****

رواية قصيرة:

أحلام وغربان

لم يجد غسان صعوبة في العثور على وابور البلدة. إلا أن انتظاره طال حتى انطلق بعد أن كوّم الركاب فيه.

طريق إسفلتي قديم يمتد المحيط عن يمينه والصحارى عن يساره. وتنقطع الصحارى عبر سلسلة من الجبال البركانية، وأفق سرابي يمتلئ بالأبخرة. جبال تزحف نحوه وأخرى تغور. والسيارة العجوز تخب فوق الأرض بصوتها المدوّي. ولغط الركاب يجلب الاسترخاء والنعاس إلى ذاته، ليغوص في الماضي يستعيده.

الجبال ترافقه في كل مكان؛ أمامه، وراءه، عن يمينه، شماله... ومياه المحيط غريبة اللون والأمواج.

نار جهنم تتأجج. رياح سمومية تلفح الوجوه، فيتعوذ من حرارتها ويتأفف. وخط أسود يلوح في الأفق فيخاله أنه سينتهي عند قدمي الجبل، والسراب بقيعه ويحسبه عند تلك البلدة حتى إذا ما اقتربت العجوز منه هرب منها وانفلت إلى أفق آخر.

السيارة تئن بتؤدة في خضم الصحراء والجبال الجرد. وقد أنهكها التعب. وسعيد يضحك:

- طيور البانعيجة تقف على الشاطئ تنتظر قدوم سمكة إليها لتأكلها.

ابتسمت معدة غسان. كان الأجنبي الوحيد في السيارة الإنكليزية المقود. شعر بوحدته. أرخى ظهره إلى مقعدها. ورؤوس الجبال المشرئبة نحوه تقترب عابسة مكفهرة. كلت عيناه.

قال المسؤول:

- إنها قريبة، فيها خضار وفواكه.

وصمت برهة ثم تنطع في كلامه:

- إنها جنات عدن يا أستاذ!

حين وصل قال له المستخدم: المسئول مشغول، انتظره. نظر من النافذة المطلة على حديقة مهجورة. ثمة غربان سحماء تتحرك مناقيرها الطويلة أمام عينيه، تبث نعيبها المثير للتوتر. حملق غراب إليه متحدياً، ضاق صدر غسان منه. ود لو يقذفه بحجر أو أن يصيح عليه. إلا أن المستخدم أبلغه عن الدخول إلى المسؤول.

ولج إلى مكتبه وحياه وقدم أوراقه. نظر المسؤول في الأوراق وقلبها على عجل، ولعله لم يقرأ إلا شيئاً واحداً فبعق:

- فلسطيني!!

- نعم!

- ماذا تريد؟

صدمه السؤال فالأوراق واضحة لكنه كظم غيظه وقال:

- العمل في الزراعة. أنا مهندس زراعي.

لم يدعه يكمل:

- لسنا بحاجة إليك.

- ولكن..

- آسفون!

- لقد جئتكم من مكان بعيد، بناء على طلبكم!

- مرحبا!

تمنى غسان في لحظة يأس أن يبكي عسى أن ينزاح غم ربض فوق صدره. ومن بعيد بدأت أعمدة من الرمل والغبار والأوراق تدور وتدور.

وبدأت ألسنة النيران تتوهج في الوقت الذي دخل فيه رجل يتأبط ملفاً ويضع نظارة وقد ارتدى بنطالاً وقميصاً خاكيين. قام المسؤول مرحباً ما إن رآه، وأجلسه مكانه وجلب كرسياً ليجلس قربه.

هدّأ غسان بركانه وقال بألم مستجدٍ:

- جئتكم لأنكم أنتم طلبتم مهندسين زراعيين.

تغيرت لهجة المسؤول ورسم ابتسامة مصطنعة على شفتيه:

- ها! حسناً، حسناً. هات الأوراق لأتأكد منها. اجلس. حقاً نحن بحاجة إلى زراعيين لكن جاءنا مهندسون كثر.

نظر الرجل الضيف إليه وسأله باستغراب:

- أين هم؟ ثم التفت إلى غسان وقال: أهلاً بك، شرفتنا، نحن بحاجة إليك.

ارتبك المسؤول، أطرق برأسه ثم قال لغسان:

- على كل لا تهتم، سأحاول أن أجد لك مكاناً.

ابتسم أمل غسان ودمعت عيناه. ودفعة واحدة خمد البركان ومضت الزوبعة بعيداً.
قلّب المسؤول الأوراق للمرة الثالثة أو الرابعة بامتعاض، وهز رأسه بعد شرود. فسحب الضيف منه الأوراق وقلبها، ثم قال للمسؤول بنبرة حادة:
- لم التلكؤ؟ عيّنه في مزارع الدولة.
وبفرح طفولي قال غسان:
- شكراً! أين هي؟ سأمضي لتوي.
تفحصه المعني بالأمر ملياً. بينما كانت عينا غسان غاطستين في أصابع المسؤول وهو يكتب أمر تعيينه. استلم الأمر بعد أن وقعه المسؤول والمعني بالأمر.
صافح الضيف بحرارة. أما المسؤول فقد اكتفى بمد يده وهو جالس. وانسل من الباب.

* * *

امتد بساط أخضر وسط هذه الصحراء. البساط يمتد ويتسع. الفلاحون والفلاحات بلباسهم الرث والمهترئ. حفاة، شبه عراة. أجساد كشجيرات أغصانها يابسة وجافة.
غاطت العجوز في مجاهل حقول الموز والنخيل وتوقفت على مضض من سائقها. فنزل وتوغل رأسه في محركها. نزل الركاب وجلسوا تحت شجرة يتفيئون في ظلالها.
أجسام برونزية البشرة. ترتدي فوطاً زاهية الألوان أو فاقعة أو غامقة. ذات أشكال متنوعة مربعات أو مخططات. تمتد من خواصرهم حتى ركبهم. ومن تحتها تتدلى سيقان حافية أو مرتدية الصنادل. ورؤوس حاسرة أو تغطيها العمائم أو المناديل. وصدور شبه عارية. الوجوه النحاسية قاتمة. العيون غائرة في محاجرها. العظام بارزة وناتئة، وقد تغطي اللحى بعض الذقون وأخرى بضع شعيرات أو حليقة.
قال عصام:
- إنها اليمن السعيد!
طفح الفرح في وجه غسان وشعر بالاطمئنان. لم ينزل من السيارة. داعبه النعاس فغلبه فأغمض عينيه في أتون الحر:
"جئتك يا جنة عدن. جئتك أزحف أحبو، جئتك يا ردفان يا شمسان، جئتك مقحوطاً لأملأ معدة خاوية. جئتك أيتها الجنة لأكتوي بنارك المحرقة، لأجلس داخل تنورك، جئتك أيها الأمل الأول حاملاً دمي خمراً لك. جئتك مهرولاً. اجتزت بحراً من الدم. كانوا وكنا وكان ردفان ومن شمم وكبرياء. ومن جرح عميق قالوا: كنا. وعيونهم تلوب عن كينونة.

اجتزت بحر الخوف بحر الألم، وصرت في بحر الأمل. وأنت جنات عدن في البر منتشية بالكبرياء.
والتاريخ عميق يستعاد. جئتك أنشد ذاتي المغرّبة. نحن معك، وأنت لنا. فازددنا وازددت غروراً. جسد أنت أيتها الصحراء فجئت أتمرغ بحبك، بحب بهرني في الكتب في التاريخ في الأخبار. كنتِ جسداً بضاً طري الملمس فانبطحت أغتسل من درني ودنسي. قرأتك فكنت الميلاد والطهارة، فركعت وسجدت. آه أيتها الجبال، آه أيتها الصحراء، آه من جسد تفوح منه رائحة العنبر. كم تلهف جسدي وكم اشتهى وأخيراً، ها هو فوق جسدك يابنة الصحراء يابنة ردفان".

* * *

الركاب احتبوا مفترشين الأرض كأنما على رؤوسهم الطير. والسائق استطاع أن يقنع العجوز الشمطاء بأن تطاوعه، فلان قلبها فأطل برأسه وقد علاه السناج، وابتسامة تكشف أسناناً صفراء أكلها السوس. وهب الركاب إلى السيارة فطارت طيورهم.
قال عصام:
- في مأرب بنوا السد ولما انهار هاجروا. فولدت تلك الشعوب.
قال غسان:
- وهؤلاء الحفاة المساكين، وهذه الصحراء؟
قال عصام:
- هؤلاء هم أحفاد بناة السد ممن بقوا. هؤلاء هم الأحفاد.

* * *

وصلت السيارة العجوز. فرك غسان عينيه وتثاءب وتمطط. نزل من الوابور. حمل حقيبته تأمل ما حوله. أدار وجهه في الجهات الأربع. قلادة من الجبال تحيط بالبلدة. ساحة ترابية تبعثرت في أطرافها الدكاكين. طرقات ترابية وعرة ملتوية توارت بين البيوت. وحجارة تناثرت هنا وهناك. البيوت شاخت منذ زمن بعيد. وثمة أشجار عربدت على هواها.
وفي الطرف الشمالي من الساحة أحاط سور بسوق الخضار، احتجب سقفه بالخشب والتوتياء.
وثمة ثلاثة مطاعم، أكلها السواد.

ازدادت الرطوبة وعويل الغربان يملأ الجو. أخذ الناس يحدقون إليه بفضول، فيحدق، فيلوون رؤوسهم ويتابعون دربهم.

توقف أمام مطعم. امتدت طاولاته الخشبية كطاولات المسالخ. وقد كشطت الأوساخ والدهون لونها، وتبعثرت الكراسي الخشبية العتيقة حولها.

لم يدخل غسان بادئ الأمر وتشابهت عليه المطاعم. آلمه الجوع ولسعته الشمس فجرته قدماه إلى واحد منها.

جاءه صبي صغير يرتدي الفوطة وقميصاً بلا أكمام، سأله:

- إيش تشتهي؟

- ماذا لديكم؟

- صيد، صانونة، خضار، دقة، حرضه...

أدركت معدته كلمة صيد فانزلق لسانه:

- صيد.

لم يغب الصبي طويلاً فقد عاد يحمل صحناً من الألمنيوم وضعه بين يدي غسان، ثم تراجع خطوة إلى الوراء. انحنى جذع غسان فوق الصحن، ونقّل عينيه بين القاع والصبي الجامد في مكانه مشدود القامة ومشدود الوجه.

- أهذا صيد؟

- نعم! تشتهي روتي، كلاس شاهي؟

خرس الجوع فجأة، ولم يتفوه بكلمة، فقال:

- نعم كلاس شاهي.

- أسود أو باللبن؟

- أسود.

وضع الصبي كأس الشاي على الطاولة. ارتجفت يده فاندلق بعض الشاي فحط الذباب على البقعة يتشاجر.

ارتشف شايه ولما أتى عليه طلب آخر غيره. امتص الجوع ما شربه. أخرج سيكارة وأشعلها وبدأ يتفرس في الوجوه حوله.

رجال يأكلون بأصابعهم الترابية، الأصابع تنغمس في أعماق الصحون وترتفع بآلية لترمي ما حملته داخل فجواتها. وآخرون يلعقون أصابعهم ثم يمسحونها بفوطهم.

الذباب يملأ الطاولات، يقفز بين الصحون ويتطاير بين الرؤوس دون أن تلتفت إليه.
وقرب الباب رجل مسن قعد على الأرض محتبياً وقد شد ركبتيه إلى ظهره بحزام قماشي، وثمة ذبابة تتدرج على وجهه ثم تقفز إلى جسمه النحيل. وهو لا يهش ولا ينش.
قال عصام:
- الحقيقة أن تعيشها لا أن تسمعها.
وسخر سعيد:
- كل شيء وله ثمن. لن تستطيع الاستمرار!
هز غسان رأسه يميناً وشمالاً ومع ابتسامة تحد:
- لا يا سعيد! سأعتاد الحياة هناك. لن أعبأ بأية عقبة وسترى ولن أهرب مثلك!

* * *

التحق غسان بعمله في قسم الأبحاث الزراعية والتطوير بهمة ونشاط. فهو يتنقل بين المكتب والمخبر والحقول والمباقر والمداجن دون كلل أو ملل. وبدأ المرجل الذي يغلي في رأسه يهمد رويداً رويداً مع مرور الشهور. حتى نعيب الغربان صار مألوفاً لديه ولم يعد نواحاً جنائزياً يشيعه.
ويدخن سيكارته أحياناً وهو يشاهد، من النافذة المطلة على ساحة المدرسة الجديدة، الطلاب والطالبات وهم يلعبون ويمرحون. كان منظرهم يأسره وهم يرتدون اللباس الموحد. لا ملاءات ولا عباءات ولا فوط.
وأحياناً ينساق فيدندن معهم وهم يرددون الأناشيد الصباحية.
وجد نفسه في واحة غناء في قلب الصحراء!
وفي الطرقات الرملية يمشي بحذر فتغوص قدماه في الرمال، فينتشلهما ناثراً الغبار حوله. ويتحاشى الحجارة وأنابيب المياه الممتدة فوق الأرض في كل الدروب. أنابيب فارغة في معظم الأحيان. وفي كل يوم يعد المسؤول عن المياه بضخ الماء! وإذا ما سئم غسان من تسويفاته يقول عبد المنعم:
- أو ليست سيارة الماء تملأ لك الخزان في بيتك؟ انتظر، إيزي، إيزي.
ما ألف الإلحاح لكنه كان يدفع حسيناً أو نزاراً للتدخل عندما يتعلق الموضوع بظمأ المزروعات والمواشي والدواجن.

الأطفال يملؤون كل مكان. يتراكضون أمامه، يقعدون على التراب، يتمددون، وقد تختفي أقدامهم النحاسية في غياهبه.

قال سعيد:

- ذو نواس أحرق الأجساد في الأخدود وابن ذي يزن حمل السيف.

وقال عصام:

- لقد تعاون مع الأجنبي ضد الأجنبي.

وطال الجدال فحسم غسان الأمر:

- كان سيف بطل القوم.

أمام الجمعيات يصطف الناس مكرهين بانتظام ينتظرون دورهم ويسمع غسان منهم التذمر علناً. فهم يقفون على مضض متأففين، لكن ما باليد حيلة كما قال أحدهم.

وهو نفسه في أسابيعه الأولى لم يستطع أن يلجم ضجره دائماً. فكان يندفع نحو البائع شاطراً الصف الطويل أمامه. فتلاحقه عيون الطابور دونما اكتراث، ولكنه كان يلمح في بعضها عتاباً وفي أخرى غيرة أو حسداً. وعلى الرغم من ذلك يتابع حتى يصل فيصرخ:

- أريد بندورة، باذنجان ،فليفله...

فيبتسم الموظف بوداعة ويصيح بصبي إلى جانبه:

- أعط الأستاذ المهندس طماطم، بيتنجان وبسباس...

* * *

يقف الآن غسان في دوره مثل الآخرين وينتظر صبوراً. قد يضجر أحياناً إن كان على عجل من أمره. ولكن هي الحياة هكذا! وعلى هذا نظم أموره، فهو يحب الشراء من الجمعيات وإن ضايقته وقفته، لأن أسعارها أرخص من السوق. ولا يحتاج الأمر هنا إلى المساومة المذلة. وطالما هناك مساومة فلن يقدر على دهاء أصحاب الحوانيت الخاصة. فهم يعرفون الأرقام التي يبدأون بها ليصلوا إلى الرقم الذي يريدونه بعد المساومة.

قال حسين له:

- شعار التجار في كل زمان ومكان "التجارة شطارة" وهذا يعني استغلال سذاجة الإنسان. فمهما كان الإنسان حريصاً وبارعاً في المساومة، سيكتشف فيما بعد غبنه أمام خبثهم. والإنسان الطيب والغر سيقع في فخ جشعهم الفاحش.

وتابع أيضاً:

- فرضنا تحديد الأرباح، وفرضنا على كل حانوت أن يضع التسعيرة على كل مادة، وعلى الرغم من ذلك يجد هؤلاء الشاطرون طرقاً جديدة للربح غير الشريف، والتلاعب على القرارات!

لذلك أحب غسان الشراء من الجمعيات رغم الانتظار، لكنه إن كان برفقة نزار يحصل على ما يريده مباشرة فهو يدخل معه من الباب الخلفي للجمعية ويختار ما يريد.

في البدء كان يشعر بالحرج، لكن الغبطة في أعماقه تطغى على ذلك، ثم مع الزمن كان يتمنى أن يصاحبه نزار دائماً إلى الجمعية!

* * *

حفظ الطرقات الثعبانية للبلدة فهي تمضي كلها إلى الحقول، وحفظ التلال والوهاد والحقول والسهول والجبال. كما صار يعرف أهل البلد ويعرفونه. ويحب بعضهم لطيبته وبساطته ووداعته، ويحبونه.

* * *

كان غسان عندما يمر أمام مجموعة من الفتيات يرمقنه بلواحظهن فلا يبالي بهن، لكن الآن يعرف كثيرات منهن، يسلم عليهن ويتحدث معهن كما يتحدث مع الآخرين، وهذا امتياز له، لأن الكلام مع الأجانب ممنوع، بعد أن كُشف النقاب عن تنظيم خارجي يحاول أن يشكل خلايا تابعة له في البلد!

واحدة من الفتيات تعمل في المركز الثقافي، ما إن يصادفها حتى يختلس النظر إليها، وإذا ما التقت الأعين يرتبك وتحمر وجنتاه فيغض الطرف ويمرق من أمامها كالغزال.

أثارت اهتمامه وسلبت قلبه يوم دعاه حسين إلى المركز الثقافي للاستماع إلى محاضرة عن حرية المرأة، ألقتها هي. ومنذ ذاك الوقت وروحه تلوب عنها في كل مكان.

وازداد جرأة فلم يعد يفر من عينيها، فقد اكتشف أنها تلاحقه بعينيها كما يلاحقها هو. صحيح أنه يضطرب أمامها ويرتبك إلا أنه صار أكثر ثباتاً أمامها.

تمنى كثيراً أن يزورها في المركز لكن ما حجته؟ أليستعير كتاباً؟ وفي مركز عمله مكتبة ضخمة فيها كل أنواع الكتب! وفكر أن يباغتها بمشاعره، ولكن ثم ماذا؟

في خضم هذا القلق كشف عن بعض أوراقه أمام حسين، فابتسم حسين وسأله:

- أتحبها؟

- نعم.

فقال حسين باستغراب: يا أخي لماذا تعقد الأمور. هذه أمور طبيعية. لا توجد عقد عندنا. العقد من تاريخ تحمله في رأسك. طالما تراها جذابة وساحرة وواعية ومثقفة، وتحبها كما تقول، فماذا تنتظر؟

وذات يوم كانت وحدها في الدرب، فاجأته، فوقف مبهوتاً يحملق إليها ببلاهة.

قال سعيد:

- إنهن يلبسن الشيذر، وتحت الدرع الشفاف...

فغر غسان فمه:

- وماذا؟

تابع سعيد:

- فإن عبثت الريح بالشيذر انفتح طرفان كما يفتح مصراعا الباب فترى الجسد كله عارياً خلف الدرع.

تلمظ غسان ثم جرض بريقه.

عيناها الداعجتان تنظران إليه باسترخاء، وشفتاها ترتعشان، وقامتها امتدت كنخلة تدعوه ليحتمي في فيئها..

قال في نفسه: ما أجمل عينيك السوداوين، ما أروع قوامك الرشيق.. شعرك الفاحم.. بشرتك الغضة، لونك البرونزي.. أو ليس هذا قمة الجمال... المرأة البيضاء تصبغ جسدها بالشمس ليصير برونزياً!

قال سعيد:

- إنه الهدهد يوم غاب عن سليمان، لولاه لما نام سليمان تلك الليلة، لقد تأخر فقرر أن يذبحه فلما قدم قال لسليمان قبل أن يعاتبه ويحاسبه:

- رأيتها!

فهدأ سليمان وذهب عنه الغضب!

قال عصام:

- الجيل الجديد يتغير، سترى إلى جانب العباءات والملاءات السود سترى البنطال والقميص والفستان... قاطعه سعيد وقد احمرت عيناه:

- إلى سليمان حُملت بلقيس. سليمان لم يأتها، وكان على مرمى حجر منها. لم يقبل إلا بأقل من لمحة البصر فحملها العفريت إليه.

مرت لحظات يتأملان بعضهما، وجاءت ريح سعيد فعبثت بالملاءة فبان الصدر المصقول وتماوج الثديان مع خفقات القلب. عض غسان على شفتيه وعيناه غارتا في ثناياها، وخطا نحوها والدم يغلي في عروقه. أقفلت أبواب جسدها واستدارت وهي ترشقه بعذوبة فابتسم وحياها.

قال سعيد:

- أتته بلقيس فمشت بغنج ودلال فوق الصرح، وكانت ساقاها مشعرتين فتساقط الشعر...

قال عصام مقاطعاً:

- الحب جسد ضمن علاقة إنسانية.

سخر سعيد:

- مضى عهد الفروسية، ألم ينه سرفانتس ذاك العصر بسخريته منه وإلا ما سر عظمة دون كيشوته؟

سارت تجر وراءها ذيلاً من الغبار وهو إلى جانبها، يزيح جبلاً ظنه أنه كائن بينهما ولكن لم يكن سوى سراب تلاشى. انفلت لسانه من قلبه وكانت تهز رأسها وتحاوره بحنان... مشيا معاً وكأنما تعارفهما يعود إلى سنين بعيدة.

اعترضتهم خراف هزيلة تنقب بين الحجارة ونواحها يملأ الفضاء.. وحمار يأكل الأوراق وهو يبحث في النفايات.

وفي نهاية الدرب ساحة صغيرة تهارشت فيها الكلاب. وشرد أحدها وهو يتحسس الأرض ويمشطها بأنفه. وثمة حدأة تحوم في السماء حول شيء ما.

وقفت أمام دارها ورمقته بدلال:

- هذا بيتنا، تفضل!

شده وخجل، ثم تمالك نفسه:

- سآتي مساء مع حسين، لأتعرف على أهلك!

ابتسمت وانسلت تاركة الباب مفتوحاً وراءها.

قال سعيد:

- بلقيس إلى سليمان وصلت، حاملة اللؤلؤ والمرجان والذهب والياقوت، وحضارة الإنس والجان...

* * *

ما بين الفرس والأحباش كان ابن ذي يزن يحمل السيف، والأحفاد يبكون ضياع ملك أبيهم.

* * *

لما قفل غسان عائداً، حامت الغربان فوق رأسه. نعيقها يخترق رأسه النشوان لحناً عذباً، نظر إليها باستخفاف. مر بالقرب منه فلاح حافي القدمين يرتدي فوطة مهلهلة، وماء وجهه قد نضب فتجعد وجهه وتسلخ. يحمل بين يديه سخلة ومن خلفهما عنزة ضمر ضرعها وغار كرشها، تقتات سمكة بين فكيها.

الغربان تمضي بعيداً وشيذر من الرمال يلفه في طياته وهو في أتون بارد.

* * *

وفي ذاك المساء، كان في بيت سبأ برفقة حسين وزوجته... حدثهم حسين عن ماضي غسان، وقد طاب له الحديث:

- كنا معاً في تنظيم واحد، وهو اتجه نحو المقاومة الفلسطينية، الفدائيين، وأنا اتجهت نحو بناء الوطن هنا، ليكون القاعدة لبناء العروبة الضائعة.. وعلاقة قيادتنا بالفدائيين قوية ومتينة كما تعرفون..

غسان أصيب خلال أحداث أيلول في الأردن وسجن، ولما أفرج عنه، منعوه من العمل في مؤسسات المملكة، ومن السفر إلى العراق وسورية ولبنان، فجاءنا ليعمل عندنا كغيره من إخوتنا الفلسطينيين...

تحدثوا في كل شيء إلا ترتيبات أمور الزواج..

فسأل غسان مستوضحاً!

فقال الأب:

- لنا الشرف بمصاهرتك يا بني، طالما هي تريدك. رتبا أموركما مع بعض، فهذه قضيتكما!

* * *

وقف غسان أمام بناء حجري عتيق ذي نوافذ من قضبان خشبية تحجب ما وراءها ولكن تلك الثقوب تتسع لعشرات الأعين. كان البناء قصراً لأحد السلاطين الفارين، وغدا اليوم بيتاً لنزار مسؤول الوحدة الزراعية.

استطاع نزار أن يقنع غسان بالسهر عنده في مجلس القات يوم الجمعة. حاول التهرب كعادته إلا أنه لم يفلح هذه المرة. فالسهرة على شرفه بمناسبة زواجه من سبأ المسؤولة عن المركز الثقافي.

وقف أمام الباب الكبير وضغط الزر الكهربائي، ولما لم يسمع صدى رنينه أخذ يطرق بمدقة حديدية انتصفته. فتح الباب نزار ورحب به: أهلاً بصهرنا، بالعريس، شرفتنا.

عبرا دهليزاً شبه معتم تسللت إليه رائحة البخور. لم يكن يتسع لمرورهما. نزار ببدانته ملأ عرض الدهليز وحده. وانتهى بهما الممر إلى غرفة واسعة امتدت على أرضها فرش إسفنجية ومساند اتكأت إلى الجدران. النوافذ امتلأت بالأشكال الهندسية الشرقية، وبالزجاج المتعدد الألوان، وقد احتلت النوافذ جداراً بكامله يطل على ساحة الدار.

وتدلت من أحد أعمدة السقف الخشبي مروحة تئز أمام الهواء الساخن. وعلى امتداد السقف الخشبي أعمدة خشبية متوازية غامقة اللون لا تخلو من نقوش وزخارف.

عبقت الغرفة برائحة البخور فأحس كأنما هو في معبد بوذي. سلم على الحاضرين والذين وقفوا لاستقباله. وجلس حيث شاء له صاحب المضافة في صدر المجلس إلى جانب حسين.

في وسط القاعة طاولة خشبية مستديرة قصيرة القوائم، امتلأت بالقات وزجاجات البيرة، قدم له نزار سيكارة. الفوط نفسها ووجوه البلدة نفسها. وضع نزار أمام كل واحد صرة قماش صغيرة تتدلى منها أغصان القات الخضراء. في الغصن الواحد بضع وريقات أصغر من أوراق البرتقال. أشكال من الأوراق مختلفة. قال نزار وهو يضع الصرة وزجاجة البيرة أمام غسان:

- القات يا أستاذ أنواع: اليافعي والضالعي واليمني...

تابع حسين المعني بشؤون البلدة وقضايا التثقيف والتوعية والتوجيه:

- القات حقك يافعي وهو أحسن نوع، الرطل يساوي عشرة دنانير. والضالعي ستة دنانير.

قاطعه عبد المنعم مسؤول وحدة المياه في البلدة:

- القات في الغيل معظمه ضالعي.

سكت الجميع، فقال حسين:

- كيف سبأ يا غسان؟

قال غسان:

- إنسانة رائعة!

قال حسين:

- المحاضرة التي ألقتها في التجمع النسائي أثارت ضجة كبيرة. خاصة حديثها عن المرأة المتعلمة والمثقفة والواعية، فهي كما قالت أفضل بمليون مرة من مليون رجل أمي جاهل! وإن سيطرة الرجل المطلقة على المرأة، عف عليها الزمن!

نظر عبد المنعم بامتعاض إليه، فقال نزار:

- شخصيتها قوية، قالت لكاتب عقود الزواج أرفض تسجيل مهر، لست سلعة للبيع، فبهت الكاتب وأيدها حسين فألغي البند.

قال عبد المنعم:

- كثرت محاضراتك وندواتك عن القضية الفلسطينية، هلكت الناس.. خففها!

أجابه حسين:

- الناس هنا متعطشون لمعرفة كل شيء عن فلسطين والشعب الفلسطيني، هل تصدقون؛ هناك من هو على استعداد لأن يلتحق بالعمل الفدائي!

قال عبد المنعم متهكماً:

- وهل يعرف في أي فصيل سيتطوع!؟

ران صمت.. فتناول غسان غصناً وأخذت عيناه تقفزان فوق الأوراق الخضراء. الأكف النحاسية تقطعها عن أغصانها وترميها في أفواهها وتمضغها.

قال سعيد:

- القات ليس كالحشيش.

قال عصام:

- هي بريطانيا أم الخبائث والمصائب. كانت تزرع الحشيش في الهند وتبيعه في الصين، تفرض بيعه... الهند مزرعتها والصين سوقها!

وضع غسان الورقة في فمه وبدأ يلوكها ثم أخرى وأخرى. طعمها مز، أحس بمرارة في فمه ما لبث أن امتد إلى حنجرته.. والآخرون يتناولون ورقة إثر أخرى يلوكونها ثم يجمعون المضغة في أحد الخدين ويتركونها مخزنة.

وتتجمع الوريقات الممضوغة في أحد الحنكين ويمضي الوقت، ويحلو السمر وتتوالى الكؤوس وتدور الأحاديث من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، والكاسيت يغني "نشوان، نشوان"...

الخدود تنتفخ بكراتها، الكرة المخزنة تكبر وتكبر ونشوانهم ينشون، والكؤوس تندلق في الأفواه الخضراء.

أومأ نزار إلى غسان فقرب رأسه منه فهمس في أذنه:

- أتدري ما قصده عبد المنعم عندما قال: معظم القات في الغيل من الضالعي؟

فوجئ غسان فرنا إلى عبد المنعم فوجده مشغولاً بنقاش مع حسين وآخرين. كان وحسين كديكين مستنفرين للعراك في كل لحظة. التفت إلى نزار وقال بصوت خفيض:

- ماذا يقصد بكلامه؟

قال نزار هامساً:

إنه يعني أن عشيرة عبد المنعم هي الأكثرية والمسيطرة في الإدارات والمجالس، وهنا في الغيل، إلا أن حسيناً هو الممسك بالأمور فسيطرته من السلطة! وحسين كما تعلم، حنبلي، لكنه تجاوز ذلك، وسألك عن صحة سبأ.

رد غسان:

- أعلم أن العشائرية والقبلية تعششان في كل مكان، لكن أنت يا نزار ما تزال غامضاً عندي!

كركر نزار حتى أن دموعه سالت على خديه، فبتر ضحكه الأحاديث الجانبية الأخرى فهبط صمت، ثم عادت الجعجعة من جديد.

الطاحونة تدور. ارتخى جسد غسان وروحه انفصلت عنه، شعور غير مألوف لا يدري أهو من القات أم البيرة أم البخور والدخان العابق في المضافة.

نزار يضحك ويضرب كفاً بكف، وقد اتكأ إلى المسند وراءه، تسح قطرات لعاب خضراء من شدقيه. وقد فرج بيت ساقيه ليريح بطنه المتهدل فارتفعت الفوطة إلى أعلى فخذه. وبعضهم يغني والأوداج تزداد انتفاخاً.

قال سعيد:

- يوم الخميس تبدأ الاستعدادات لتخزين القات. البلد تشل. الحكومة تمنعه في غير العطل والأعياد.

قال عصام:

- رفض الناس في البدء ذلك. يريدون القات كل يوم. خرجت التظاهرات. تصدت الحكومة لهم بالقوة فخمدوا أمام الحسم. واختبأ الغضب والاحتجاج خائفين. وتقبل الناس الواقع الجديد مكرهين.

توقفت زراعة القات وكل نبتة ميتة يزرع مكانها بُن أو غيره ويقولون:

" القوت ولا القات"!

المروحة تدور وخطوط الأعمدة المتوازية تتداخل فتبدو لغسان كعمود واحد متحرك. أخرج علبة دخان أخرى وأخذ يمزق غلافها السولفاني، فاستعصى عليه فعالجه بشدة فتمزق غطاء العلبة. أخرج سيكارة وأشعلها ونفث الدخان عالياً وأخذ يرقب سحابتها المتبددة فوق رأسه بين سحب الدخان ثم قرقر البيرة في حلقه.

كانوا يمجون الكرات ويتمضمضون بالبيرة. أحس بخدر هادئ يسري في أعصابه ولكنه يدرك تماماً وبوضوح كل ما حوله، ونشط عقله على غير عادته في مثل هذا الوقت، فأحس بحاجة ملحة للكلام.

نزار يضحك فينفرج فمه عن مغارة خضراء مرصعة بالعاج والذهب قال:

- يا حسين خبر الأستاذ عن السلطان. ضحك حسين والجميع.

قال حسين:

- صنعوا للسلطان عرشاً جديداً كبيراً، ولما انتهوا لم يستطيعوا إدخاله إلى قاعة العرش، وكان السلطان مفكراً ففكر. وكانت الشورى فاستشار. وفي الملمات يتخذ القرار المناسب، فأمر بهدم الجدار كله!

ضحك الحاضرون كلهم والقات ينفذ رويداً رويداً والبيرة تتجمع زجاجاتها الفارغة تحت الطاولة. ولم ينتبه غسان إلى أن رذاذه الأخضر تناثر في الهواء. مسح نزار وجهه بكم قميصه الفاقع الألوان وقال:

- مندوب السلطان في الأمم المتحدة تعجب كيف أدخلوا الطاولة الكبيرة إلى قاعة المجلس على الرغم من صغر باب القاعة، وطوال الجلسة كانت هذه القضية شغله الشاغل، ولما سئل عن رأيه في المسألة المطروحة وكانت حول إفريقيا، قال: ها! العودة للحق فضيلة!

ضحك الغيل، وضحك غسان حتى الثمالة. وتذكر مشكلة المياه، فعقدة لسانه حلت فسأل:

- متى تنتهي مشكلة المياه يا عبد المنعم، كل فترة وفترة انقطاع؟!

قال عبد المنعم باستغراب:

- إيزي، إيزي. باكر، باكر.

قال حسين بهدوء:

- إلى متى يا عبد المنعم؟ ألا تجد أنك تجاوزت الحدود؟

ارتشف عبد المنعم البيرة وقال بعصبية:

- يا أخي دعوا الناس، لم تلاحقونهم، أين الحرية؟

احتد حسين:

- ماذا تعني؟ هل تخريب المضخة حرية؟ أم نترك عبد العزيز يهرب المواد من الجمعية ليبيعها بسعر أغلى في مستودعه، هو الحرية! ثم لم تدافع عنه؟

قطب عبد المنعم جبينه ثم نفر دم من عينيه:

- التجارة حلال. لا يحق لكم تحديد الأسعار والأرباح! وقد قلت ذلك في الاجتماع.

تغيرت قسمات وجه حسين إلا أنه سيطر على غضبه فقال:

- إن تركنا لهم الأمر، نهبوا الناس وأفقروهم. لا حد لجشعهم. لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. أنت يا عبد المنعم تنظر للحرية من منظار التجار واللصوص. وعليك كمسؤول أن تنظر من منظار الناس الفقراء، وهذا قلته لك أيضاً في الاجتماع.

الغيظ سيطر على عبد المنعم فلم يتمالك أعصابه:

- الدين لم يحدد الأسعار أو الأرباح!

أجاب حسين:

- عندما نمتلك التاجر النزيه والشريف والأمين والقنوع، لا نحتاج إلى تحديد الأسعار والأرباح، لأن الضمير هو الرقيب عليه ولن يرضى بالغش والخداع والنهب، سيرضى بالقليل حتماً ولا سيما إن كان أهل بلده كلهم فقراء!

ثم اعتدل في جلسته وأطرق رأسه ملياً ثم رفعه باتجاه عبد المنعم، وقال بتحدٍ:

- قل لي يا عبد المنعم أين هو هذا التاجر؟ كم مرة ضبط عبد العزيز وغيره وكم مرة أُنذروا؟

ارتسمت سخرية مصطنعة على شفتي عبد المنعم فقال:

- الآن هو في السجن! وليس بسبب التلاعب!

قال حسين بفتور وبرودة أعصاب وهو يحملق إلى عبد المنعم:

- لقد حرض الناس ضدنا واتهمنا بالكفر، وأنت تعلم بأننا لا نتدخل في أمور الدين، فالعبادة قضية شخصية بين الإنسان وربه، ونحن نحترم عقائد الناس وأديانهم. لكن لا نقبل أن

يُستغل الدين لتغطية السرقة والنهب والتهريب! الأمر باختصار؛ لأننا ننتقد الفساد ونريد منع اللصوص من النهب والسرقة نُتهم بالزندقة!!

في الحقيقة ليست القضية قضية دين وإلا لم قُتل عمر بن عبد العزيز؟! ألم يكن تقياً وورعاً عادلاً؟ من وضع له السم بعد سنتين من عدله وإنصافه وزهده؟ أو ليست حاشيته وأهله لأنه منع السرقة والنهب و...

هناك قاعدة فقهية تقول: "الضرورات تبيح المحظورات"، وعندما يستشري الفساد والسلب والنهب والرشاوى، يحق للسلطة أن تشرع لحماية الفقراء وهم عامة الشعب، من اللصوص وهم الأقلية، وإن كان في ذلك خرق للقاعدة، ألم يخرق عمر بن الخطاب القاعدة؟!

رد عبد المنعم متهكماً ولم يلتفت إلى لكز نزار له:

- دعوا السوق لأصحابه و...

لم يدعه حسين يكمل فقاطعه قائلاً:

- اسمع يا عبد المنعم، هناك أمور تناقش في مجلس البلدة وهذا ليس بالمكان المناسب، ولكن أحب أن تضيف إلى معلوماتك بأن الدين ليس هو مجرد حرية التجارة والربح اللامحدود فهناك أحاديث "من غشنا فليس منا" أو ليست زيادة الربح غش، لأن قيمة البضاعة الحقيقية أدنى بكثير من السعر المطروح! وهناك حديث: "ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم به"! أو ليس هؤلاء الذين تدافع عنهم ينامون ملء عيونهم، يحتضنون الذهب وجيرانهم يتضورون جوعاً؟!

ثم يا عبد المنعم أليس الحديث يقول:"إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" ؟ فلم لا تتقن عملك كمسؤول عن المياه؟

سكت عبد المنعم وطأطأ رأسه حنقاً. وتنحنح نزار فأقحم نفسه:

- لم تكن الحياة هكذا. كل شيء يتغير، خرجت بريطانيا وتركت أشياء كثيرة، ونحن من تعديل إلى تعديل، إلى تعديل التعديل.... السلاطين ماتوا أو هربوا.. ألم تسمعوا بالسلطان هبوب لقد فتح مطعماً شعبياً وآخر صار نجاراً. من بقي صار يعمل كغيره.. انتهى عهد السلاطين... نحن نحتاج يا حسين إلى الاعتدال والمرونة والانفتاح... حبة، حبة...

رد حسين مبهوتاً:

- أي اعتدال وأية مرونة؟ نحاول أن نخلق كل شيء من اللاشيء. الآخرون في الخارج ولهم جماعتهم عندنا، لا يريدون لنا أن نحيا كما نريد.. ورغم كل العقبات، الأمور تسير نحو

الأفضل، الانفتاح يعني أن الجبال لن تصير خضراء، ولن تزرع الصحراء، الغربان ستبقى تزعجنا بنعيبها! مشاريعنا كثيرة..

توقف حسين، وأخذ يقطع أوراق القات ويحملها إلى فمه..

فقال غسان بشفقة وقلق:

- وماذا أيضاً يا حسين؟

- مشكلتنا في الكوادر والفقر.. سنبني المصانع، والمدارس في كل مكان، ونعبد كل الطرقات، سنحول البلدة إلى ورشة عمل وإنتاج.. ونخلق الخبرات..

ولن ترى الأطفال يغوصون في الرمال، ستكون لهم حدائقهم وأنديتهم وألعابهم، نحن فقراء يا أستاذ ولكن عندما نوحد اليمنين سيقوى اقتصادنا ونتابع مشاريعنا ونحقق أحلامنا. ليس لدينا الآن المال والخبرات.. الخبرات تفر من عندنا، لا تتحمل فقرنا. من يأتي يصدمه واقعنا بل تصدمه بعض أخطائنا كالكسل والإهمال والتهرب من المسؤولية.. لكن لنا أصدقاء كثيرون يمدون لنا يد العون..

قال نزار مؤازراً بحذر:

- وسنتعلم النظافة يا غسان سنتعلم الحياة وكل شيء ولكن حبة، حبة، العجلة لن تفيد شيئاً. يجب أن نكسب الجميع...

غيوم الدخان تملأ الغرفة وثقل يهبط على صدر غسان رويداً رويداً. المغارات والدخان قيأته فأحس بالارتياح. غسل وجهه. عضلات فكيه تشنجت. روحه ولسانه وحدهما طليقان فسأل نزاراً:

- لم لا تمنعون القات؟

ضحك نزار:

- الدين يا أستاذ حرم الخمر على مرحلتين... حبة، حبة...

- واللصوص؟

سوّى حسين جلسته كعادته مع كل كلام، وقال ملوحاً بإصبعه:

- لا تشتر من المستودعات الخاصة. كلهم لصوص. اشتر من الجمعيات، وقد نصحتك بذلك. صحيح هناك بعض المواد لا تستطيع الدولة أن تؤمنها للناس، فتتركها للمستودعات، لكن هناك مواداً متوفرة في الجمعيات، وفجأة تختفي وتمتلئ المستودعات بها بأسعار أغلى!

كيف يتم ذلك، نحن نعرف كيف تنتقل؟

ثم التفت إلى عبد المنعم الذي أشاح بوجهه نحو السقف وتابع:
- في المستقبل لن تكون هناك غير الجمعيات، وفيها ستجد كل شيء، كل شيء..
حملق عبد المنعم إليه مكفهراً وأراد لسانه أن يقتحم النقاش، لكن نزاراً تدارك الأمر فقال مقاطعاً تدخله:
- الخضار والفواكه واللحوم رخيصة جداً، والفروقات بين المستودعات والجمعيات ضئيلة..
وأكمل بعينين جاحظتين إلى حسين:
- كل القطاعات ضرورية وكلها يجب أن تعيش!
قال حسين بحزم:
- هذا قوت الناس. لا يجوز اللعب فيه. ولن نسمح بأن يسيل لعاب الجشع عند قلة على حساب الآخرين..
قاطعه نزار:
- لندع هذه الأحاديث. نحن هنا لنحتفل بزواج غسان...
قال عبد المنعم بلهجة ساخرة:
الفلسطينيون كثروا في بلادنا، في كل مكان تجدهم، حتى في الجامعة.. وكل فصيل له نشاطه وإعلامه كأنما الساحة له وحده، وسكت، ثم التفت إلى غسان وسأله:
- لو قبلوا بك هناك في الخليج، هل كنت تأتي إلينا!
نظر غسان بازدراء إلى عبد المنعم، وقال:
- بقيت خمسة أشهر بلا عمل، ولم أقبل أي عرض للعمل في السعودية أو الخليج، رغم إغراءات الرواتب!!
قال حسين:
- اسمع يا عبد المنعم، الفلسطينيون ضيوفنا، وهم حريصون علينا أكثر من حرصك أنت، هم بحاجة إلينا ونحن بحاجة إليهم، ونحن وهم واحد.. وهذا البلد أردناه قلعة يأوي إليها كل الشرفاء والمضطهدون..
استمر سمر مجلس القات حتى الفجر. وانفض الجميع وعاد غسان ظمآن إلى النوم.
كانت سبأ نائمة، فاندس في السرير بهدوء.

* * *

طالت فترة توقف المضخات عن العمل وكادت المزروعات تجف. الأرض عطشى وخزانات الماء فرغت..

ركض غسان كالمجنون يبحث عن نزار فلم يجده. فانطلق يعدو إلى مكتب عبد المنعم. ودخل دون استئذان. كان قابعاً خلف طاولته الزان على كرسيه الدوار. صرخ غسان بألم:

- الخضار ستموت، الأرض تيبس. أين الماء. كل يوم تقول إيزي، باكر.. إيزي!

تثاءب عبد المنعم وحط جسمه فوق الطاولة وبسط ذراعيه واتكأ برأسه عليهما:

- إيزي يا أستاذ إيزي. قلت لك المضخات معطلة.

- وعدت بأنك ستصلحها، وحتى الآن لم تفعل شيئاً!

انتفض عبد المنعم كمن مُست كرامته وكبرياؤه:

- اسمع يا أستاذ، نزار مسؤول الوحدة الزراعية لا يلاحقني كما تلاحقني أنت، وعلاقتك معه وليست معي أنا. وأنا لا أسمح لحسين أن يكلمني بهذه اللهجة. على كل نحن إخوان وأنت طيب. الأمر يحتاج إلى مضخات جديدة. مضخات غربية. المضخات الشرقية سيئة كل يوم أعطال، أعطال.

قال غسان باستغراب ودهشة:

- ألم تقل هذا الكلام أمام حسين، فأحضر خبيراً من العاصمة وكشف عليها، وتبين أن هناك عمليات تخريب!؟

قال عبد المنعم ببرودة أعصاب، بعد أن انساب جسده فوق الكرسي وقوس جبهته ونظر بنصف عين:

- هكذا يدعون! يجب أن نشتري مضخات غربية.. وهذا يحتاج إلى ميزانية ولجنة.. ثم همهم كأنما يستوحي من كلمة لجنة أشياء تداعت في ذهنه:

- سنعمل على تشكيل لجنة فنية، لدراسة الموضوع، وهذا سيتم بالاتفاق مع نزار..

قال غسان مقاطعاً:

- المزروعات تموت، الماشية والدواجن لن تصبر علينا!

أطلق عبد المنعم لجسده العنان ليتمدد باسترخاء تام وتابع:

- عمال الصيانة قالوا: لا فائدة، ويجب شراء مضخات جديدة. كما أن شبكة الأنابيب لا تتحمل ضغط المياه. ستنفجر كلها!!

- والحل يا عبد المنعم؟!

- سنشكل لجنة كما قلت. تنزل إلى العاصمة للاطلاع على أنواع المضخات والأسعار. وسنجري اتصالاً مع الشركات الغربية للاطلاع على ما عندهم. ثم نوازن بين الأسعار الشرقية والغربية والميزات الفنية لكل منهما. أنا ونزار متفقان على شراء مضخات غربية هذه المرة. قال الإخوان: نحتاج إلى عملة صعبة وهي غير متوفرة لهذه القضية. قلت أنا على استعداد لتأمينها. قالوا لن نشتري من الغرب، وأقفلوا الموضوع نهائياً. إذاً هم يتحملون وزر الزرع والدجاج!

قال غسان بيأس:

- إذاً كيف ستحل مشكلة القرن الإفريقي!؟

- إيزي يا أستاذ! لازم تقدر الظروف، البلد تغيرت، أنا لا أقرر من عندي، ولا أمتلك القرار..

وتوقف قليلاً وتابع بخبث ودهاء:

- آه، لو كانت أيام زمان، لحلت المشكلة فوراً، أو ربما لن تكون هناك مشكلة!

قال غسان مبهوتاً:

- ماذا تعني!؟

- الحقيقة يا أستاذ واضحة! الجميع يعلم.. الأمور نضجت، الغيوم ستنقشع باكراً، وعندها سنرى إن كانت المياه ستتدفق في الأنابيب أم لا!

* * *

خرج غسان من المكتب، وصفق الباب خلفه، متوجهاً إلى مكتب حسين. لم يجده، قالوا له: ذهب إلى مكتب العمال، فانطلق إليه.

انتظره طويلاً حتى أنهى اجتماعه، فباشره حانقاً:

- مشكلة المياه يا حسين! المزروعات تموت، ونزار ابتلعته الأرض، وهو لا يمتلك سوى القول: المسألة على بساط البحث!

وعبد المنعم لا ينوي حلها.. وقبل قليل قابلته فقال أشياء غريبة..

كان حسين شاحب اللون، ينفذ الألم من مسام جلده، فقال وهو يطوي انكساره:

- عبد المنعم يخرب المضخات، يريد أن يظهرنا عجزة أمام الناس، ولا يلتزم بالقرارات، وهو محسوب علينا، ومثله كثيرون في كل مكان.. يريدون إفشالنا.. الآن أخبرني مسئول العمال وهو إنسان مخلص، عن تخريب الآلات في مصنع المعلبات..

قال غسان بضيق كتم أنفاسه:

- لم التهاون، لم لا تحسمون أمركم، اطردوا عبد المنعم وغيره، وتنتهي المشكلة!
ازدرد حسين ريقه من ألم جرَحه في أعماقه:
- بعض الإخوان يرفضون الحسم، بل يعارضونه بشدة، ونحن أضحينا مجموعات ضد مجموعات، فئات ضد فئات.. وعبد المنعم عشيرته هي الأكثر، ولو مسسنا شعرة في رأسه، ستجد عشيرته فرصتها المناسبة للتحرك ضدنا علناً، وستشنها حرباً لا ندري أين تنتهي!
الأمور معقدة أكثر مما تتصور، عندما تتحرك العقلية العشائرية لا تعرف الصديق من العدو، المخلص من المخرب.. لذلك نعتمد على لغة الحوار والنقاش والعقل والمنطق، عسى أن نحقق ما نريد، لكن الأمور تسير نحو الأسوأ، فالتخلف والجهل والارتباطات الخارجية، والتحالفات ضدنا أقوى، وتزداد قوة يوماً بعد يوم!
كل يوم نفاجأ باتجاهات جديدة وبتكتلات جديدة، بأصوات معارضة جديدة، ومع الأسف بعضنا يبيت أمراً في الوقت الذي يبيت فيه أعداؤنا أموراً على المدى الأبعد!
إنهم يستفيدون من خصاماتنا وخلافاتنا لأنها ستضعفنا، وبالتالي مهما يكن المنتصر منا، فسيكون ضعيفاً أمامهم، وعندها ينالون منه بسهولة!
جماعتنا تعيد ترتيب البيت، نحن بحاجة لتوحيد اليمنيين هنا قبل توحيدهم مع إخوانهم في الشمال...
قال غسان بأسى وجزع:
- والزرع يا حسين!
- اسمع يا غسان، أنت صهرنا وعزيز علينا. المشكلات عويصة كما ترى، لقد استنفرنا العمال والفلاحين والطلاب ولكنهم منقسمون على أنفسهم، لقد وصلت الأمور إلى أوجها، وأشم رائحة الدخان. نزار ليس مهتماً بالزرع، له طموحه وعشيرته كبيرة، ولكن ليونته ستضيع كل شيء.. وبعد المنعم رؤيته أبعد، ويعرف كيف يستغل الظروف لصالحه، ويعرف متى تحين رياحه!
وعلى الرغم من كل ذلك، أخبرك بأنني أسعى مع العاصمة منذ أيام لحل مشكلة المياه.. إلى اللقاء..

* * *

عند الظهيرة انتشر الخبر كالنار في الهشيم؛ قُتل الحسين! هرع غسان إلى المشفى الحكومي الجديد في البلدة.. احتشد الناس في ساحته الأمامية.. كتل هلامية تموج في هرج ومرج..

الشرطة تحيط بالمشفى وتمنع الدخول إليه.. الوجوم يملأ بعض الوجوه. وابتسامة حيية تنفرج من بعض الوجوه...

الغربان تنبح أهازيج جنائزية.. نقّل غسان عينيه بين الوجوه، فلمح نزاراً يتوسط مسلحين يرتدون الفوط والقمصان. اقترب منه شاقاً طريقه إليه ودموعه تتلجلج في حلقه. بادره دون أن يحييه:

- كيف حصل ذلك؟ من قتله؟

زفر نزار طويلاً وأجاب:

- قتل عند المضخة الرئيسية، جاءته رصاصات مجهولة من أماكن متفرقة، قتلته ومن معه من عمال الصيانة بعد أن أصلحوا المضخة..

وتابع وهو يحملق إلى عيني غسان التائهتين في استنكار:

- ستتدفق المياه أخيراً دونما انقطاع.. لكن هناك أخطاء، بعضهم لا يريد أن يعمل، وبعضهم لا يؤمن بالسلطة نفسها! فهل نشنق الناس كلهم؟ من سيبقى؟

اغرورقت عينا غسان بالدموع:

- وماذا سيحدث الآن؟

- لقد انفجرت الأمور، وهذه بداية النهاية!

- وأنت؟

- أنا أترقب لأعرف أين أضع قدمي قبل رأسي. ماذا نفعل؟ القبائل تحركت وهي غير راضية منذ زمن بعيد. عشيرة عبد المنعم هي الأكبر، ولكن لن يكون له الأمر وأنا موجود! الناس كالمؤلفة قلوبهم في الدين؛ يجب أن نعطي بعضهم أجراً وإن لم يعمل، لأن العمل للجميع، وبذلك نشتري سكوتهم ونكسب رضاهم.

تقدم عبد المنعم وقد توسط حزامه مسدس ووقف أمام نزار شامتاً:

- لو أصغى إلي لما وصلت الأمور إلى الانفجار، لقد جلب خبراء من العاصمة دون أن يخبرني!

لم ترق كلمات عبد المنعم لنزار فقال:

- انتهى حسين، وستنتهي جماعته في كل مكان...
قال عبد المنعم بوجه صارم:
- يجب أن تتغير الأمور؟
لم يدر نزار من أي منطلق يتكلم عبد المنعم بهذه اللهجة، ولكن ليس الوقت وقت وضع النقاط فوق الحروف فقال:
- هذه الأمور ستناقش في الاجتماع، ولكن لا تنسى أن هناك طموحات وأحلاماً!
- هز عبد المنعم رأسه بغطرسة:
- معظمها هراء!
- صحيح هناك أخطاء، لسنا ملائكة.. ولكن هناك ظروف ذاتية وموضوعية...
قاطعه عبد المنعم بسخرية:
- متى ننتهي من هذه الترهات والخزعبلات؟ من قتل الحسين سيفتح صفحة جديدة وإلا فلم قتله؟ على كل هل ستبقى مسؤولاً عن وحدة الزراعة أم سئمت منها؟!
تلعثم نزار، ولكنه ضبط نفسه، وتصنع الطمأنينة والهدوء:
- أنا.. أنا.. أنت تعرف، لست راضياً عن الوضع. ولي اعتراضات كثيرة على حسين، ولكن الآن، أنا المسؤول عن البلدة ولن أتخلى عن ذلك لأحد.
ابتعد غسان عنهما وازداد حدسه يقيناً، فانصرف دون أن يعيراه انتباهاً أو يلتفتا إليه.

* * *

الشمس يلمع بريقها فوق رأسه وتزداد تأججاً. أبخرة تتصاعد إلى فمه وأنفه. الملوحة تملأ خياشيمه. سار ببطء، قدماه تغوصان في الرمل فينتشلهما بنزق، فيتناثر الغبار والتراب حوله.
الرطوبة تقطر ماء منه. التصقت ملابسه بجسده. الرياح السموم تخترق جلده، الغربان تحوم فوق رأسه وتنعق، تطارده بأعينها السود. اقتربت منه، مد ذراعيه، هشها بعيداً عنه ولكنها ما لبثت أن عادت، فقفز في الهواء. طالتها يده فضربها ذات اليمين وذات الشمال. تكاثرت عليه، أحاطت به، طوقته. ارتعش جسده، ارتطم بحجر، فانكب على وجهه في الرمل.. جر جسده فوق الرمال والتراب، نهشه غراب في غفلة منه. رأى لسانه الصغير بين منقاريه يتحرك بتوتر. غاص رأسه بينهما، صرخ، أطبق المنقاران عليه. قال سعيد:
- الغربان تعيش قبائل وعشائر. إن آذيت أحدها هاجمك القطيع كله.

أمسك غسان بحجر، قذفه بكل قوته، فأصاب ذيل الغراب، فتأرجح ونعق وفر بعيداً مبحوح الصوت، فتبعته بقية الغربان.

اتكأ على كفيه ورفع جسده. كان في مقلاة، نهض واقفاً، نفض عن رأسه ووجهه التراب، قرص الشمس يحتجب خلف دوامة من الرمال الحمراء.

قال عصام:

- الحياة هناك مدرسة.. مدرسة ابتدائية، وستنمو وتكبر شيئاً فشيئاً.

وقال سعيد:

- ستعود بخفي حنين مثلي.

نظر غسان إلى الشمس. دمعت عيناه. صارتا جمرتين فانفلت لسانه:

- "لن تكبر الابتدائية، إنها تتحول إلى حضانة، وستغلق أبوابها، قتلوا الحسين.. جئت أتقدس هنا، جئت أملاً يولد. الصحراء مومس. لا يا عصام لم أر جنات عدن، ولن تراها. الجنة سراب هنا. هنا الكلام أكثر من الحجارة، الأحلام والطموحات أكبر من ردفان وشمسان. الناس في العصور الوسطى، لن يتأصل الجذر تحت الرمل والشوك. ما أسهل التسويغ والتبرير.

أيتها الصحراء لن تكوني مطهراً، أيتها الجبال البركانية لن ينبت فيك السنديان ولا البلوط.."

غطست قدماه في الرمل والتراب أكثر. والغربان عادت تنعق أمامه وخلفه وفوقه، وتموجات أرياشها السود والزرق تنعكس في عينيه غبشاً يحجب الرؤية.

جر ساقيه باكتئاب والغربان تشيعه بلباسها الأسود وبتراتيلها الجنائزية.

* * *

وصل إلى البيت والدموع تغطي عينيه. وفي حضن سبأ بكى كطفل وأحس بحرارة دموعها تتساقط على خده.

صورة الحسين أمامه، كلماته في أذنيه، كان شاهده في الزواج. ذهب الثلاثة هو وسبأ وحسين إلى البلدية. قال حسين مداعباً موظف عقود الزواج:

- اكتب وثيقة ارتباطهما، وأنا أشهد على حبهما.

هنا أمامه كان يجلس قبل أيام في سهرة عائلية، تحدث عن الأوضاع والانشقاقات والتكتلات والتيارات وقال:

- نحن قلة وهم الأكثرية. لسنا أصحاب كن فيكون. كن واقعياً يا غسان نحتاج إلى الوقت. القبلية والجهل والتخلف والطمع في السلطة هم أسياد الموقف. إننا نحني قاماتنا مرغمين أمام الرياح العاتية.

ولما اشتد نقد غسان اللاذع قال:

- هناك نفوس صغيرة، لا تنحني قاماتها فقط، بل تركع وتسجد لتركب الموجة، لتوظف النظام والسلطة لصالحها. أنانية وذاتية. نحتاج إلى تربية جديدة.

الأجهزة الموجودة تعمل بعقلية الماضي ومبادئه. ليست لدينا البدائل. ما زلنا في بداية الدرب، تنقصنا الثقافة والوعي والخبرة. التجربة والممارسة تعلمان الكثير، أعداؤنا كثيرون؛ في الداخل والخارج. الطامحون إلى السلطة كثر.. الكرسي يريدونه بأي ثمن وبأية وسيلة، إنه خاتم سليمان، مصباح علاء الدين..

قال غسان:

- أخشى ألا تجدوا الوقت الكافي للوصول إلى نهاية الدرب!

ابتسم حسين بثقة:

- تفاءل بالخير تجده.. المهم ألا نتراجع.

وقالت سبأ:

- أحلامنا ستتحقق.. المستقبل لنا، لن نعود إلى الوراء!

قال غسان:

- لن تتحول البيداء بالنوايا الطيبة. النوايا الطيبة بلاط جهنم. ستبقى الصخور، الواقع نحن، والزمن نحن!!

* * *

قرع الجرس صباحاً. قام غسان وفتح الباب. كان عبد المنعم ومعه رجل مسلح. دعاهما للدخول، فلم يقبلا رغم إلحاحه. قال عبد المنعم:

- عليك أن تغادر البلدة. سنرسل سيارة عسكرية ظهراً لتأخذك إلى العاصمة.

قال غسان ومعه سبأ بصوت واحد مبحوح:

- لماذا؟

أعطاه مغلفاً وقال:

- لقد أنهينا عقدك. في هذا المغلف كل تعويضاتك. وفيه كتاب مني بصفتي نائب نزار المعني بشؤون البلدة. في العاصمة سينهون الوضع ويأخذونك مباشرة إلى المطار لترحل. نحن ننفذ أوامر العاصمة وتعليماتها.

قال غسان منزعجاً:

- سأبقى إلى جانب زوجتي وأهلها!

شعر عبد المنعم أن المسافة التي خلقها بينه وبين غسان لم تفلح، فأفصح أكثر:

- اسمع! أنت غير مرغوب فيك هنا! نحن لا ننسى خدماتك وإخلاصك في العمل، لكن لا تنسى أنك كنت مدعوماً من حسين. ونزار نفسه لم يرتح لأمرك. قال لي مرة: زوّدها بندواته ومسيراته وبياناته وخلافاته مع الفصائل الفلسطينية الأخرى، لقد جعل البلدة بيروت أخرى!

التصفيات اندلعت. حسين مات وانتهى، وأنت محسوب عليه. وما حصل هنا حصل في كل مكان خلال ساعات. إنه التعديل الجديد.. انتهى حسين وتياره، أتفهمني!

قالت سبأ:

- لن نغادر، سنبقى وننتقم للحسين، لن نعود إلى الوراء!

كظم عبد المنعم غيظه وقال مستهزئاً:

- ستنتقمين ممن؟ جماعتكم انتهت في كل مكان، وجماعة نزار تسيطر على الوضع في العاصمة وغيرها، ونحن هنا نسيطر على البلد أعني جماعة نزار! لا مجال للعواطف. تستطيعين أن تسافري مع غسان، ثم قال بلهجة الآمر الواعظ:

أنتما واعيان وتقدران الموقف. لا نريد أن نؤذيكما. أنت أجنبي ولا علاقة لنا بك وبأفكارك. وأنت يا سبأ، لقد تعهدنا لأهلك بألا نمسك بسوء، وبالسماح لك بالسفر مع غسان. وبإمكانك أن تودعي أهلك وأن تجهزي أموركما.

أغلق غسان الباب خلفه، وارتمى على الكرسي. وضعت سبأ أصابعها على كتفه بحنان، وامتلأت الغرفة حزناً، وتبعثرت في أرجائها ذكريات مشلولة!

* * *

زأر الجوع في أعماقه فرسم عصام له الطريق. كل الأبواب أغلقتها السلطة في وجهه. حمل شهادته في الهندسة الزراعية يستجدي بها. جاءه عصام من بيروت يطفح وجهه بالسعادة والحبور ومعه سعيد، حاملاً عقد العمل، قال:

- أبشر، في عدن يريدون مهندسين زراعيين!

وتابع بفرح:

- لن تعيش في رعب، لن تطاردك الأشباح المسعورة، لن تفر بين الأزقة الضيقة.. ستعيش بين أحباب لفلسطين وللفلسطينيين، وللفدائيين!

وأخذا يحدثانه عن اليمن...

* * *

عند الظهيرة حملت سيارة عسكرية غسان وسبأ وحقيبتيهما إلى العاصمة.

*****

الهوامش:

1- البابور: سيارة الأجرة الصغيرة.

2- الفوط: قطعة قماش تلف حول النصف الأسفل من جسم الرجل.

3- الأجنبي: يطلقون هذه الكلمة على كل غير يمني وإن كان عربياً.

4- ردفان وشمسان: جبلان في عدن.

5- الروتي: الخبز. وهي هندية الأصل.

6- كلاس شاهي: كأس شاي، الأولى إنكليزية، والثاني هندية.

7- الشيذر: العباءة السوداء، الملاءة.

8- الرطل الإنكليزي ما يقارب نصف الكيلو.

9- الغيل: مجلس القات.

10- حبة، حبة: قليلاً، قليلاً.

11- إيزي: كلمة إنكليزية - سهل - هون عليك – بسيطة.

12- حق: اختصاص، ملك.

* * * * *

النهاية